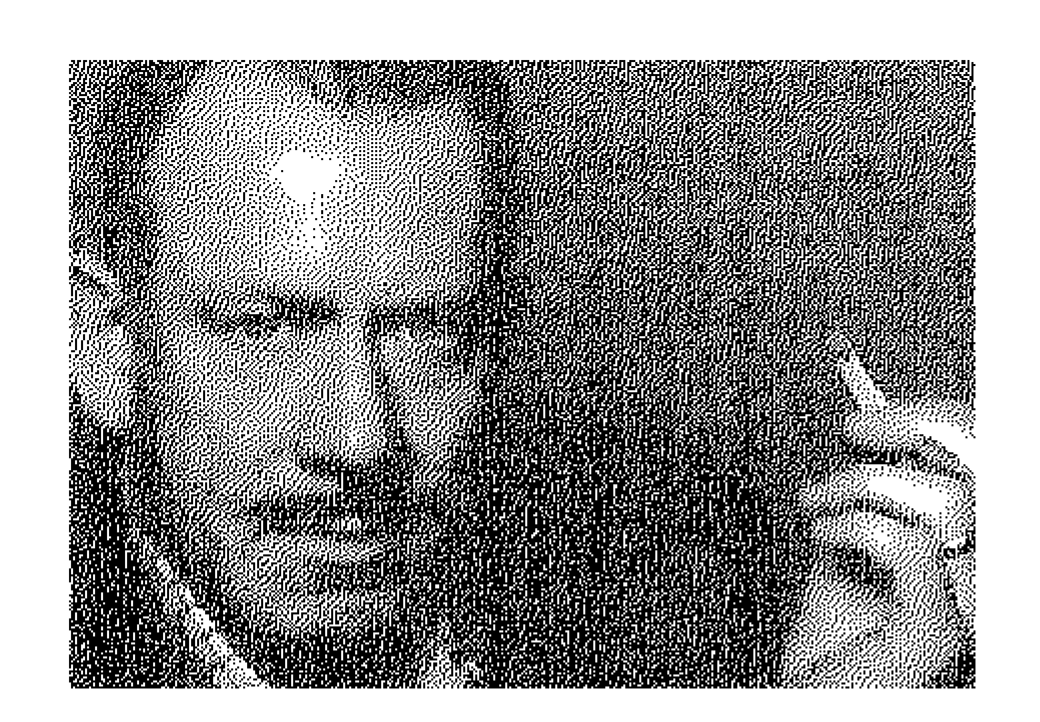

جون شتاينبك
اللؤلؤة
ترجمة
مصطفى فتحي علي
دار علاء الدين
81
S8
20



John Steinbeck

جون شتاينبك كاتب أمريكي (1902-1968). حاز عام 1939 على جائزة The Pulitzer، عن روايته Grapes of Wrath، وعام 1937 عن روايته القصيرة Of Mice and Men. كتب سبعة وعشرين كتاباً، منها ست عشرة رواية، وستة كتب في الأدب القصصي، وخمس مجموعات في القصة القصيرة. حصل عام 1962 على جائزة نوبل للآداب.

من أعماله:

Of Mice and Men (1937)
The Long Valley (1938)
The Grapes of Wrath (1939)
Sea of Cortez: A Leisurely Journal of Travel and Research (1941)
The Moon Is Down (1942)
Bombs Away: The Story of a Bomber Team (1942)
Cannery Row (1945)
The Wayward Bus (1947)
The Pearl (1947)
A Russian Journal (1948)
Burning Bright (1950)
East of Eden (1952)
Sweet Thursday (1954)
The Short Reign of Pippin IV: A Fabrication (1957)
Once There Was A War (1958)
The Winter of Our Discontent (1961)
Travels with Charley: In Search of America (1962)
America and Americans (1966)

اللؤلؤة

جون شتاينبك

اللؤلؤة

ترجمة

مصطفى فتحي علي



منشورات دار علاء الدين

• اللؤلؤة.

• تأليف: جون شتاينبك.

• ترجمة: مصطفى فتحي علي.

• الطبعة الأولى 2010.

• عدد النسخ 1000 نسخة.

• تمت الطباعة في دار علاء الدين.

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص. ب: 30598 هاتف: 5617071

فاكس: 5613241، E-mail: ala-addin@mail.sy

ISBN: 978-9933-18-063-8

رائعة صغيرة من روائع كلاسيكيات الأدب العالمي للكاتب الأمريكي جون شتاينبك، الحائز على جائزة نوبل للآداب ١٩٦٢ وصاحب: «عناقيد الغضب»، «تورتيلافلات»، «شتاء الأحزان»، «عن الرجال والفئران».. وغيرها من الروايات والقصص القصيرة.

... تحكي هذه الرواية: «اللؤلؤة» عن صياد لؤلؤ مكسيكي عثر على أكبر لؤلؤة في العالم، ولكنه بدلاً من أن يصبح ثرياً وأكثر سعادة في العالم؛ فقد السعادة والحلم وتقريباً كل شيء...

.. حكاية بسيطة مفعمة بالرمز والشجن مثل الحكايات الشعبية والموروثات الفولكلورية.. صاغها شتاينبك بعبقرية أدبية فذة في قالب غنائي بديع.

يحكون في المدينة قصة اللؤلؤة التي لا مثيل لها.. أو أضخم لؤلؤة في العالم.. كيف عثر عليها، وكيف فقدت.

.. يحكون عن «كينو» صياد اللؤلؤ، وعن زوجته «جوانا»، وعن طفلهما «كويوتيتو».

ولأن الحكاية قد حكاها الناس كثيراً، وزادوا وعادوا فيها.. فقد ضربت بجذورها في وجدان كل من سمعها. ومثلما الحال مع كل القصص التي تروى كثيراً، وتحتل مكاناً في قلوب الناس، فسيظل الباقي دائماً من تلك القصة. أشياء طيبة يقابلها أشياء شريرة.. وأشياء بيضاء في مواجهة أشياء سوداء. ولن يبقى منها على مر الزمن أشياء وسط أو «بين بين».. وإذا كان في قصتنا هذه شيء من الرمز، فربما يستخلص منها كل إنسان - على حده - المعنى الخاص به، أو يطالع فيها صفحة من صفحات حياته.

على أي حال..

يقولون في المدينة.

١

استيقظ «كينو» من نومه في ربع الليل الأخير، حين كان الظلام قد بدأ ينسحب مفسحاً مكانه للنهار الذي كان يرسم في تلك اللحظات على استحياء مسحة خفيفة من الضياء على صفحة السماء التي بدت منخفضة ناحية المشرق.

وكانت الديوك قد بدأت في الصياح منذ مدة قصيرة. كما كانت الخنازير التي استيقظت من نومها قد بدأت هي الأخرى تنبش بدأب ونشاط بين أغصان الشجر والأوراق الجافة المتناثرة على الأرض عساها تجد شيئاً فاتها أن تأكله أو كانت قد أهملته من قبل.

وخارج الكوخ المبني بجذوع وأغصان الشجر في المنطقة التي تتجمع بها أكواخ الصيادين، طار سرب من العصافير ورفرف بأجنحته في الهواء، ثم اختفى...!

★★★

فتح «كينو» عينيه ونظر إلى المربع المضيء الذي رسمته فتحة باب الكوخ، ثم نظر إلى الصندوق المتدلي من السقف الذي ينام فيه «كويوتيتو»، وأدار رأسه أخيراً نحو «جوانا» زوجته التي كانت راقدة إلى جانبه على حصيرة النوم المفروشة على الأرض، وقد غطى شالها

الأزرق أنفها وصدرها والتف حول خصرها. وكانت عيناها السوداوان - في تلك اللحظة - مفتوحتين وتعكسان نجمتين صغيرتين متلألئتين.

ولا يذكر «كينو» أن استيقظ من النوم مرة واحدة في حياته ورأى تلك العينين مغلقتين.. كانت «جوانا» تنظر إليه نظرتها نفسها دائماً حين يستيقظ.

☆☆☆

سمع «كينو» صوت الطرطشة الخفيفة لأمواج الصباح وهي تتكسر على الشاطئ، وكان صوتها بديعاً، فأغلق عينيه ليستمتع بموسيقا البحر التي يعشقها.. ربما كان هو وحده من يفعل ذلك، وربما كان كل أهله وكل الصيادين يفعلون مثله.. فقد كانوا ذات يوم من صناع الأغاني العظام، لدرجة أن أي شيء كانوا يشاهدونه أو يسمعوا عنه أو يخطر ببالهم، يحولونه بعفوية وبساطة شديدة إلى أغنية يترنمون بها.. فعلوا ذلك منذ زمن بعيد، وما تزال أغانيهم حية. وكان «كينو» يعرفها ويرددها أحياناً.. وعلى الرغم من أنه لم تكن هناك أغنيات جديدة أضيفت إلى هذا التراث الغنائي إلا أن ذلك لا يعني عدم وجود أغنيات خاصة... في رأس «كينو» الآن واحدة منها، واضحة وصافية ورقيقة، لو كان بإمكانه أن يتحدث عنها أو يسميها، لكان سماها «أغنية الأسرة».

☆☆☆

وضع «كينو» بطانيته فوق أنفه لتحميه من هواء الصبح البارد، ثم انتبه إلى حفيف بجواره، حيث كانت «جوانا» تنهض من نومها دون أن تحدث صوتاً.. وقفت ثم اتجهت بقدميها الحافيتين إلى الصندوق المتدلي من السقف الذي ينام فيه «كويوتيتو»، وانحنت فوق الصندوق

وهمست، فنظر إليها الطفل لحظة ثم أغلق عينيه وراح في النوم، ثم اتجهت إلى (الكانون)[1] ونبشت الرماد المتراكم في قاعه لتكشف عن قطع الفحم التي ما زالت تختزن ناراً، ثم كسرت بعضاً من الأغصان الجافة فوقها، وراحت تنفخ حتى اشتعلت النار وتوهجت.

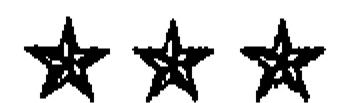
★★★

نهض «كينو» بعد أن أحكم وضع بطانيته حول رأسه وكتفه، ودس قدميه في صندله، ثم خرج من الكوخ ليستمتع بمشاهدة الدنيا التي غمرها ضياء الفجر، وقرفص خارج باب الكوخ بعد أن جمع أطراف البطانية حول ركبتيه، فشاهد بقعاً من سحب الخليج تتوهج في الهواء، في حين اقتربت منه عنزة راحت تشمته وتحدق فيه بعينيها الصفراوين الباردتين.

★★★

خلف «كينو» في داخل الكوخ، توهجت النيران التي أشعلتها «جوانا» في الكانون، فأرسلت رماحاً من الضياء نفذت من شقوق جدران الكوخ، ورسمت مربعاً ضوئياً متأرجحاً ظهر من الخارج محدداً فتحة باب الكوخ، وفي الداخل طارت فراشة وعربدت هنا وهناك باحثة عن مصدر الضوء الذي بعثته النار.

وهكذا كانت تتصاعد في داخل الكوخ «أغنية الأسرة» التي كانت أداة إيقاعها حجر الطين الذي كانت تديره «جوانا» لتطحن الذرة الذي تصنع منه كعك الصباح.



١ـ «Fure Pit»: حفرة النار أو الكانون الذي يستخدم كموقد.

وسرعان ما حلَّ النهار: مسحة من النور الخفيف، ثم وهج، ثم ضياء غامر، ثم انفجار نيران متأججة في اللحظة التي بزغت فيها الشمس من الخليج.

ونظر «كينو» للأسفل كي يحمي عينيه من الوهج الشديد، في الوقت الذي كان يشم فيه الرائحة الزكية التي تنبعث من العجين الذي تصنع منه «جوانا» الكعك عند وضعه فوق النار.

★★★

كان النمل يجري فوق الأرض منهمكاً ومشغولاً، نمل كبير أسود بأجسام لامعة، ونمل صغير أغبر اللون وسريع الحركة.

ومثل الإله الذي يراقب المخلوقات على الأرض من عليائه، راح «كينو» يراقبه حينما كانت نملة صغيرة غبراء تحاول في هياج شديد أن تهرب من فخ رملي نصبته لها نملة كبيرة مفترسة، ثم اقترب منه كلب نحيل يبدو عليه الجبن، وما إن لمح إشارة ودودة من «كينو» حتى زحف نحوه وجلس على الأرض داساً ذيله بين قدميه الخلفيتين، ماداً ذقنه بنعومة فوق كومة رمل أمامه. كان كلباً أسود تنتشر فوق عينيه مكان الحاجبين بقع ذهبية اللون.. كان الصباح مثل كل صباح، ولكنه في هذه اليوم كان أكثر روعة وكمالاً.

★★★

سمع «كينو» صرير الحبل المعلق به صندوق الطفل في السقف، حين جذبته «جوانا» لتخرج منه «كويوتيتو»، وتتظفه ثم تؤرجحه في شالها المعقود حول كتفها بطريقة تجعله قريباً من صدرها.

كان «كينو» يرى هذه الأشياء دون أن ينظر إليها، فقد رآها كثيراً من قبل. وكانت «جوانا» تدندن بصوت عذب ورقيق أغنية قديمة تتكون من ثلاث نغمات موسيقية فقط، ولكنها تتميز بتنوع لحني لا نهائي. كانت هذه الدندنة جزءاً من الأغنية العائلية التي تتحول أحياناً إلى نغم حزين يمسك بالحلق ويعبر عن معنى الأمان والدفء والكمال.

★★★

داخل سياج الشجيرات الذي يحيط بمنطقة الأكواخ، كانت هناك أكواخ صيادين آخرين مثل «كينو»، يتصاعد منها هي أيضاً الدخان وصوت السلاسل، ولكن أغنيات هؤلاء الصيادين كانت أغنيات أخرى، وخنازيرهم كانت خنازير أخرى، وزوجاتهم لسن بالطبع «جوانا».

★★★

كان «كينو» شاباً صغيراً وقوياً، ذا شعر أسود يتدلى فوق جبينه الأسمر، وكانت له عينان دافئتان براقتان، وشارب رفيع خشن.

أزاح «كينو» البطانية عن أنفه بعد أن تلاشى الدخان المتصاعد من الكوخ، وبعد أن غمره ضوء الشمس الأصفر.

وبالقرب من سور الشجيرات المحيط بالأكواخ كان هناك ديكان منحنيان في مواجهة بعضهما، وقد أطلقا أجنحتهما، ونفشا ريش رقبتيهما استعداداً للاشتباك لم يكن من المتوقع أن يكون شرساً أو مثيراً؛ إذ لم يكونا من ديوك المصارعة المدربة تدريباً جيداً. راقبهما «كينو» للحظات ثم تحول بنظره عنهما نحو حمامتين بريتين كانتا تحلقان في اتجاه التلال البعيدة.

كانت الدنيا قد استيقظت، وكان على «كينو» حينئذٍ أن ينهض ويعود إلى الكوخ. وبينما كان يدخل الكوخ، نهضت «جوانا» من جانب الكانون المتوهج بالنار، وأعادت «كويوتيتو» إلى صندوقه المعلق بالسقف، ثم جلست وراحت تمشط شعرها الأسود، ثم ضفرته ضفيرتين ربطت نهاية كلاً منهما بشريط رفيع من القماش الأخضر.

★★★

قرفص «كينو» بجوار (الكانون)، ثم دحرج كعكة ساخنة من على اللوح الموضوع فوق النار، وغمسها في «الصلصة» ودسها في فمه، شرب بعدها قليلاً من «البولكو»[1]. وكان هذا هو كل إفطاره، الذي اعتاده والذي يتناوله دائماً في غير أيام الأعياد، وباستثناء مرة واحدة في إحدى المناسبات الدينية التي تناول فيها كمية كبيرة من الكعك والحلوى كادت تقضي على حياته. وعندما انتهى من تناول إفطاره، عادت «جوانا» إلى (الكانون) وقرفصت بجواره لتتناول هي الأخرى إفطارها.

وتنهد «كينو» معبراً عن رضاه، وكانت هذه التنهيدة هي كل الحديث المتبادل والمعتاد بينه وبين «جوانا».

★★★

أدفأت الشمس الكوخ بأشعتها النافذة من شقوق الجدران على هيئة خطوط رفيعة طويلة، وسقط أحد هذه الخطوط على الصندوق الذي يرقد فيه «كويوتيتو» وعلى الحبل المعلق به في السقف. وجذبت حركة خفيفة نظر كل من «كينو» و «جوانا»، وجعلتهما يتجمدان في

١ـ «Pulque» بولكو: شراب مكسيكي مسكر يصنع من عصير الصبار.

مكانيهما... فقد كان هناك عقرب أسفل الحبل يتحرك ببطء متوجهاً نحو الصندوق، وذيله منتصب خلفه، جاهز للانطلاق واللدغ في لمح البصر.

***

كانت أنفاس «كينو» اللاهثة تحدث صفيراً ضعيفاً في فتحتي أنفه، ففتح فمه ليتنفس منه ويمنع هذا الصفير. ثم زالت من عينيه نظرة الدهشة الفجائية، وزال تخشب جسده، في حين طافت بذهنه أغنية جديدة.. شريرة.. تصاحبها أنغام موسيقا وحشية، ومن داخل تلك الأغنية كانت أغنية الأسرة تصرخ بنغمات حزينة.

***

تحرك العقرب بخفة فوق الحبل زاحفاً للأسفل ومقترباً أكثر من الصندوق الذي يرقد به الطفل. وراحت «جوانا» تردد في همس تعويذة سحرية قديمة، وتتضرع بالرجاء من بين أسنان فكيها المضغوطين بشدة إلى مريم العذراء لتحميهم من هذا الشر. بينما كان «كينو» في حالة حركة مضطربة ومستمرة، يلف ويدور حول الصندوق في خفة وصمت ويداه ممدودتان أمامه، ومتحفزتان للانقضاض، دون أن تفارق نظرات عينيه العقرب أو «كويوتيتو»، الذي كان في تلك اللحظات العصيبة يتقلب في مرح داخل الصندوق، ويمد يده الصغيرة نحو العقرب الذي استشعر بالخطر المقترب منه في اللحظة نفسها التي كادت يد «كينو» الممدودة نحوه تصل إليه وتمسكه، فتوقف عن الحركة وسكن تماماً في حين انتصب ذيله فوق ظهره مرتعشاً ارتعاشات خفيفة، وقد لمعت الشوكة المقوسة في نهاية الذيل.

***

وقف «كينو» ساكناً تماماً، في حين كانت «جوانا» مستمرة في الهمس بتراتيلها السحرية القديمة. كان عاجزاً عن أي حركة، إلى أن تحرك العقرب مرة أخرى، فمد يده بحذر شديد نحوه، وفي تلك اللحظة هزت حركة «كويوتيتو» في صندوقه الحبل، فسقط العقرب، وأثناء سقوطه كاد «كينو» أن يمسكه بيده، لكنه أفلت من بين أصابعه ليستقر فوق كتف «كويوتيتو» ويلدغه. وعندئذٍ مسك «كينو» العقرب، وهو يزمجر، وراح يفركه بين أصابعه حتى تحول إلى عجينة ألقى بها على الأرض، وأخذ يدقها بقبضة يده حتى سواها تماماً بسطح الأرض، وأصبح العقرب مجرد بقعة رطبة منطبعة على التراب.

وبينما كان الطفل يصرخ من الألم، توهجت عيني «كينو» بالغضب، في حين كانت أغنية العدو تزأر في أذنيه.

☆☆☆

انتشلت «جوانا» طفلها بسرعة من الصندوق، ثم وضعت شفتيها فوق الثقب الذي أحدثته اللدغة في كتفه، والذي كان يتوسط بقعة حمراء ملتهبة، وراحت تمص بقوة وتبصق، ثم تمص وتبصق، بينما كان الطفل مستمراً في صراخه. وكان «كينو» في تلك اللحظات يلف ويدور ويروح ويجيء، عاجزاً عن أي فعل.

☆☆☆

تسبب صراخ الطفل المستمر في اندفاع الجيران نحو كوخ «كينو»، وكان أول الذين اندفعوا واحتشدوا بالكوخ «جوان توماس» شقيق «كينو»، وزوجته البدينة أبولونيا، وأطفالهم الأربعة. وأخذ

الجيران خلفهم يتلاصقون خلف بعضهم البعض، ويحاولون النظر إلى داخل الكوخ. وبين أرجلهم كان حُشر كثير من الأطفال. وكان الذين في مقدمة هذا الحشد يهمسون لمن ورائهم بأن الطفل لدغه عقرب.

توقفت «جوانا» عن امتصاص السم، في حين كان الثقب الذي أحدثته اللدغة قد اتسع قليلاً وابيضت حوافه بفعل المص، وامتد الورم والالتهاب ليشمل بقعة أوسع حول الثقب، وانتفخ مكان اللدغة مكوناً نتوءاً صلبة.

★★★

كان لدى هؤلاء الناس الذين ازدحموا بالكوخ معلومات كافية ودراية بلدغة العقرب وما تسببه. فكانوا يعرفون أن الإنسان البالغ الذي يلدغه عقرب قد يمرض مرضاً شديداً، بينما يمكن أن يموت الطفل بسهولة من تأثير السم. وكانوا يعرفون أن الورم هو أول شيء يظهر ثم تعقبه حمى وضيق في الحلق، وتقلصات شديدة في البطن، بعدها يموت الطفل، لا سيما إذا كانت كمية السم التي تغلغلت في جسمه كبيرة.

ويبدو أن آلام «كويوتيتو» الشديدة التي سببتها لدغة العقرب قد تلاشت، حيث تحول صراخه إلى مجرد أنين.

★★★

كثيراً ما كان «كينو» يندهش ويتعجب من صلابة وتماسك زوجته التي كانت على الرغم من رهافتها ورقتها تستطيع تحمل أشد الآلام، دون أن تطلق صرخة واحدة، وتظل على الرغم من التعب

والجوع واقفة على قدميها مدة طويلة، أطول مما يحتمله هو نفسه. وحتى في قارب الصيد، كانت دائماً مثلها مثل أي رجل قوي، وها هي الآن قد فعلت شيئاً مذهلاً بامتصاصها السم وسيطرتها على الموقف.

☆☆☆

فجأة صاحت «جوانا» بحدة:

- الطبيب.. اذهب لإحضار الطبيب.

ومرت كلماتها وانتشرت وسط الجيران المحتشدين في داخل الكوخ وخارجه، فتعجبوا وراحوا يرددون فيما بينهم: «جوانا» تريد الطبيب!. كانوا يعرفون أن مجيء الطبيب إلى منطقة أكواخ الصيادين شيئاً مستحيلاً، علاوة على ذلك: أنه لم يحدث مطلقاً من قبل. فما الذي يجعله يحضر إذا كان لديه الكثير ممن يعتني بصحتهم ويداويهم من أثرياء المدينة الذين يعيشون في بيوت مبنية من الحجارة ومكسوة من الخارج بطبقة من المصيص.

لذلك ردد الجيران المحتشدون بفناء الكوخ: الطبيب لن يأتي، كما ردد الواقفون بباب الكوخ. الطبيب لن يأتي، وانتقل ما رددوه إلى «كينو» الذي قال بعفوية ودونما أي تفكير. الطبيب لن يأتي. فافترسته «جوانا» بنظرات حادة وباردة، وكأنها نمرة متوحشة، ثم قالت بحزم:

- إذاً نذهب نحن إليه.

وبيد واحدة عدّلت وضع شالها الأزرق الغامق فوق رأسها، وحملت الطفل الذي كان مستمراً في أنينه الخافت في طرف من الشال، بينما غطته بالطرف الآخر لتحمي عينيه من ضوء الشمس الشديد خارج الكوخ.

وتراجع الواقفون بالباب دافعين من خلفهم إلى الوراء حتى يجعلوها تمر، في حين تبعها «كينو» وهي تتجه إلى الطريق الترابي. وفي أعقابها كان يهرول الجيران. وهكذا أصبح الأمر شأناً من شؤون الجيرة، وهماً عاماً من هموم كل الجيران، وليس هماً خاصاً «بكينو» و «جوانا» وحدهما.

وتشكل موكب من الأقدام الخفيفة السريعة، يتجه إلى مركز المدينة؛ في مقدمته كانت «جوانا» و «كينو»، وخلفهما مباشرة جوان توماس وزوجته أبولونيا ببطنها الضخمة التي كانت تهتز وتترجرج بفعل إيقاع الخطوات النشطة والسريعة، وبعدهما كان كل الجيران، وعلى أطراف الموكب كان يهرول عدد كبير من الأطفال.

كانت الشمس تضربهم في ظهورهم وهم يهرولون، وتلقي بظلال طويلة سوداء أمامهم. وكانوا يبدون لسرعة هرولتهم وكأنهم يمشون فوق ظلالهم، بل ويسبقونها.

☆☆☆

وصل الموكب إلى الحد الذي يفصل بين منطقة الأكواخ وبين المدينة ذات البيوت الحجرية المكسوة من الخارج بالمصيص، والمحاطة بأسوار عالية تتسلق عليها نباتات بديعة الألوان، والتي تخفي ما وراءها من حدائق خضراء فسيحة. وأثناء مرورهم بتلك البيوت كان يترامى إلى أسماعهم زقزقة وتغريد الطيور المحبوسة في أقفاصها المعلقة بين جنبات تلك الحدائق التي تخفيها الأسوار، كما كان يصل لآذانهم صوت الماء الذي يُرش به البلاط الحجري

المرصوف به ممرات تلك الحدائق، حتى يجعل الجو الشديد الحرارة لطيفاً.

☆☆☆

عبر الموكب الميدان الكبير الذي يتوسط المدينة بعد أن مر من أمام الكنيسة الرئيسة بها، وكان حجمه يتزايد كلما تقدم في مسيره، وعند أطراف الموكب كان القادم الجديد المسرع للانضمام إليه يعرف من السائرين فيه أن طفلاً صغيراً لدغه عقرب، وأن أبواه يحملانه الآن ويتوجهان به إلى الطبيب.

☆☆☆

من بين الذين انضموا إلى الموكب: المتسولون.. الذين يتخذون من سلالم مدخل الكنيسة مقراً دائماً لهم، والذين كانوا خبراء عظام في التحليل المالي: ألقوا نظرة سريعة على الجونلة الزرقاء (الرداء) القديمة التي ترتديها «جوانا»، ولاحظوا الثقوب الكثيرة المنتشرة بشالها، وقوّموا الشريط الأخضر الذي تربط به ضفائرها، وقرؤوا العمر الافتراضي لبطانية «كينو» التي يلقيها على كتفه، وقدروا آلاف المرات التي غسلت فيها ملابسه، فحطوا من شأنهما واعتبروهما من الفقراء. لكنهم استمروا في مسيرتهم خلف الموكب حتى يشهدوا بأعينهم ما سوف تسفر عنه الأمور، وإلى أي نوع من الدراما يمكن أن تتطور الأحداث.

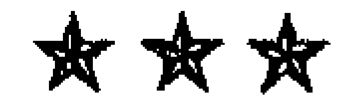
كان هؤلاء المتسولون يعرفون أي دبة نملة في المدينة؛ إذ يلاحظون من موقعهم الدائم والجيد على سلالم مدخل الكنيسة: انفعالات وجوه الفتيات اللاتي يدخلن الكنيسة، ثم يقارنون تلك

الانفعالات بما يظهر على وجوههن منها عند خروجهن من الكنيسة، فيستنتجون طبيعة الاعتراف الذي اعترفن به، وجنس الخطيئة التي ارتكبنها. وبهذه الطريقة كانوا يعرفون كل فضيحة صغيرة وكل جريمة كبرى ترتكب بالمدينة. وهؤلاء المتسولون كانوا لا يغادرون موقعهم أبداً، بل ينامون فيه مستظلين بظل الكنيسة حتى لا يتسلل أحد إلى داخلها سواء للعزاء أم المواساة أم الاعتراف وأخذ البركة، دون أن يلاحظوه أو يعرفوا خبره.

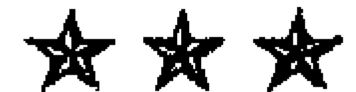
كانوا يعرفون أيضاً الطبيب الذي يتوجه إليه هذا الموكب الحاشد ويعرفون كل شيء عنه: قسوته وجشعه وشهواته ونزواته وخطاياه، ولا ينتابهم الشك في جهله العلمي؛ إذ يعرفون عدد عملياته الجراحية الفاشلة، ولديهم إحصاء دقيق عن حالات الإجهاض التي أجراها. كما يذكرون المرات التي تصدق فيها بقروش قليلة على الفقراء بعد أن تغلب على بخله الشديد.

وكثيراً ما رأوا جثث ضحاياه وهي تدخل الكنيسة للصلاة عليها قبل دفنها.

ولأن قداس الصباح الباكر في الكنيسة كان قد انتهى، والعمل بالنسبة لهم كان شحيحاً في اللحظة التي مر بهم الموكب، فإنهم لم يجدوا مانعاً من متابعة الموكب باعتبارهم باحثين دائمين عن المعرفة الكاملة لحال أتباعهم، وليشهدوا بأعينهم ما سوف يفعله الطبيب البدين الكسول مع طفل فقير لدغه عقرب.



أخيراً وصل الموكب الذي كان يهرول كل من فيه بسرعة منتظمة إلى البوابة الكبيرة لمنزل الطبيب. وأمام البوابة وصل إلى أسماعهم صوت رذاذ الماء المتناثر في الجو من النافورة التي تتوسط حديقة المنزل، وصوت شدو وزقزقة العصافير المحبوسة في الأقفاص المعلقة بين جنبات الحديقة، وصوت المكانس الطويلة التي تكنس بها الممرات الحجرية بالحديقة، كما وصلت إلى أنوفهم رائحة شواء اللحم المنبعثة من مطبخ المنزل.



وللحظات قصيرة تردد «كينو» أمام البوابة الكبيرة.. فالطبيب ليس من جنسهم، ولا هو من أهله أو عشيرته، وإنما ينتمي إلى جنس الغرباء الذين قاموا على مدى أربعمئة عام أو يزيد بإيذائهم ونهبهم وتجويعهم، وإلقاء الرعب الدائم في قلوبهم، إلى درجة أن أحداً من جنس «كينو» لم يكن يجرؤ على الاقتراب من باب منزل أحدهم، وإذا حدث واضطرته الظروف إلى الاقتراب، كان يمتلئ بشعور كثيف من الذل والمهانة وهو يقترب. ولذلك كان «كينو» يشعر بالضعف والخوف الممتزج بالغضب وهو واقف أمام البوابة، متردداً في طرقها. فأهون عليه كثيراً أن يقتل هذا الطبيب، من أن يتحدث معه. إذ سينظر إليه الطبيب - مثلما ينظر دائماً إلى كل جنس «كينو»- وكأنه أمام حيوان أليف.

لذلك، بينما كان «كينو» يرفع يده اليمنى ويمدها نحو المطرقة الحديدية بالبوابة، رنت في أذنيه نغمات موسيقا عدائية صاخبة، فجز بأسنانه على شفتيه وهو يرفع بيده اليسرى قبعته

العريضة المصنوعة من القش عن رأسه، ثم دق المطرقة بعنف واستعجال، ووقف ينتظر.

وبين ذراعي «جوانا» كان الطفل «كويوتيتو» يئن ويتلوى، فأخذت تخاطبه برقة وحنان، في حين التصق الحشد الذي كان يسير في الموكب حول البوابة ببعضه ليرى ويسمع على نحو أفضل.

★★★

وبعد لحظة واحدة فتحت البوابة الكبيرة فتحة صغيرة لا تتعدى بضع بوصات. وعن طريق تلك الفتحة لمح «كينو» اللون الأخضر البديع لحديقة المنزل الفسيحة، الذي يعطي إحساساً بالطراوة في حر الجو الشديد، كما لمح النافورة الصغيرة التي ترش رذاذاً خفيفاً من الماء في وسط الحديقة.

ولما أطل برأسه من فتحة البوابة، وجد واحداً من جنس «كينو»، خاطبه «كينو» بلهجتهم المحلية والقديمة قائلاً:

- الصغير.. المولود الأول.. تسمم بالعقرب.. يحتاج للعلاج.

فضيّق الخادم من فتحة البوابة وقال مستخدماً لغة حديثة غير تلك التي خاطبه «كينو»:

- لحظة واحدة، سأذهب لإبلاغ الأمر.

ثم رد البوابة في عنف، وأحكم إغلاقها (بالقفل).

★★★

وفي غرفته كان الطبيب يجلس متربعاً فوق سريره العالي، مرتدياً ثوباً من الحرير ذا لون أحمر متموج، كان قد اشتراه من باريس منذ زمن طويل، ولذلك بدا ضيقاً عليه، بعدما صار بديناً.

وكان فوق حجره صينية فضية عليها إبريق فضي مليء بالكاكاو، وكأس من الخزف الصيني، صغير جداً ورقيق إلى درجة أن شكله بدا سخيفاً جداً عندما رفعه نحو فمه بيده الغليظة مستخدماً طرفي سبابته وإبهامه وناشراً أصابعه الثلاثة الأخرى بعيداً.

كانت عينا الطبيب تستقران داخل جفنين منتفخين، وفمه كان غليظاً ويتدلى حيث يوحي باستيائه، أما صوته فكان أجشاً بفعل الدهون المتراكمة التي تضغط على حنجرته.

وإلى جانب السرير كانت هناك منضدة خشبية صغيرة، عليها ناقوس صيني صغير، وعلبة سجائر خشبية كبيرة.

كان أثاث الغرفة التي يجلس بها الطبيب ثقيلاً وقاتماً ويعطي إحساساً بالكآبة، وكان معلقاً على الجدران صور دينية تتوسطها صورة كبيرة وباهتة لزوجته الفقيدة، التي لو كانت القداسات الدينية التي أوصت عليها، ودفعت تكلفتها مقدماً قبل أن تموت تفعل شيئاً أو تؤتي بثمار، لكانت الآن في الجنة وسط القديسين والقديسات!

☆☆☆

كان ذلك الطبيب في يوم من الأيام - ولمدة قصيرة من حياته - جزءاً من العالم المتحضر، حيث كان يعمل في فرنسا. ثم تحولت حياته بعد ذلك إلى ذكرى واشتياق وتطلع دائم إلى ذلك العالم. إذ كان يردد في كل مناسبة، وحتى من دون مناسبة: «آه لقد كانت حياة عصرية عظيمة!».. إذ كان قادراً بدخل مالي صغير أن يستمتع ببعض وسائل الراحة والرفاهية، ويتناول طعاماً جيداً في أفخم مطاعم باريس.



ملأ الطبيب كأساً من الكاكاو، وكسر بأصابعه بعضاً من البسكويت، ثم قذفه في فمه. في حين كان خادمه يقف عند باب الغرفة المفتوح منتظراً أن يلاحظ الطبيب وجوده فيأذن له. وعندما التفت إليه وتساءل:

- ماذا هناك؟ رد قائلاً: هندي فقير معه طفل.. يقول إن عقرباً لدغه. فوضع الطبيب الكأس بهدوء، قبل أن يتصاعد غضبه، ثم قال بانفعال:

- أليس هناك شيء أفعله غير علاج قرص الحشرات للهنود الفقراء؟.. أنا طبيب ولست بيطرياً.. هل تفهم؟.

فرد عليه الخادم: نعم يا سيدي.

ثم قال له:

- هل معه نقود؟.. بالطبع لا يملك منها شيء.. وأنا الوحيد في هذا العالم الذي يجب عليه أن يعمل من دون مقابل. آه.. لقد سئمت ذلك! اذهب وأسأله هل مع نقود؟

فذهب الخادم وفتح البوابة الكبيرة فتحة صغيرة مثلما فعل في المرة الأولى، ونظر إلى الحشد المنتظر خارجها، ثم سأل «كينو» مستخدماً هذه المرة اللهجة المحلية التي يتكلم بها «كينو».

- هل لديك نقود تدفعها للعلاج؟

فدس «كينو» يده في مكان خفي تحت بطانيته التي يتلفح بها، وأخرج ورقةً مطوية طيات كثيرة، وأخذ يفضها طية بعد طية حتى ظهرت أخيراً ثماني لآلئ صغيرة مشوهة، لونها باهت وغير كاملة الاستدارة.

وتناول الخادم الورقة التي بها اللآلئ، ثم أغلق البوابة، وبدلاً من أن يتوجه إلى حيث يجلس الطبيب، وقف لحظات خلف البوابة، ثم عاد وفتحها فتحة أصغر من المرة السابقة، ومد يده بالورقة المطوية إلى «كينو» وقال:

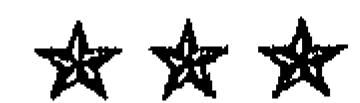
- الطبيب خرج.. ليعالج حالةً مرضية خطيرة.

وأغلق البوابة بسرعة، دونما أي شعور بالخجل.

☆☆☆

سرت موجة من الشعور بالخزي والإحباط بين الحشد المزدحم أمام البوابة، والذي سرعان ما تفرق وانصرف. وعاد المتسولون إلى مقرهم فوق سلالم مدخل الكنيسة، وتوزع المتشردون، ورحل الجيران منكسي الرؤوس قبل أن يستقر في عيونهم مشهد الفضيحة العلنية المخزية التي حدثت لـ «كينو».

أما «كينو»، فقد وقف طويلاً أمام البوابة، وإلى جانبه «جوانا»، رفع يده ببطء ووضع القبعة العريضة فوق رأسه، ثم فجأة، ودونما سابق إنذار، ضرب البوابة بقبضة يده ضربة قوية، ثم نظر باندهاش إلى مفاصل يده التي تشققت، وإلى الدم الذي انساب من بين أصابعه.



٢

تحتضن المدينة ضفتي المصب العريض للنهر، وتعانق شاطئ الخليج بمبانيها القديمة الصفراء والمتلاصقة بعضها إلى جوار بعض.

وعلى الشاطئ أمام منطقة الأكواخ تصطف قوارب الصيادين بألوانها البيضاء والزرقاء، والتي يستجلبها الصيادون من «ناياريت»، ثم يطلونها سنوياً وعلى مدى أجيال متعاقبة بمادة شبه صدفية صلبة مقاومة للماء؛ يعتبر تركيبها سر من أسرارهم المتوارثة.

ولهذه القوارب جوانب عالية وغير سميكة، ومقدمتها ومؤخرتها مقوسة ومنحنية للأعلى، ويتوسطها جزء قوي مدعم يشبه الصندوق مثبتة به صارية تحمل شراعاً مثلثاً صغيراً.

والشاطئ الرملي الأصفر كان لونه عند حافة الماء يتحول إلى اللون الرمادي بفعل الأصداف المتكسرة والطحالب المنتشرة عليه، كما كان يمتلئ بالسرطانات التي ترغي وتزبد وتبقبق في ثقوبها التي تحفرها في الرمال، وهنا وهناك كان جراد البحر يدخل ويخرج بشكل مفاجئ وسريع في بيوته الصغيرة المليئة بالفجوات السطحية التي تتخلل الحجارة الصغيرة والرمال، تلك البيوت التي تمتلئ دوماً بمياه البحر.

أما قاع البحر فكان يزخر بالكائنات الحية المختلفة، التي منها ما يسبح ومنها ما يزحف، ويمتلئ بالطحالب البنية التي تتماوج مع تيارات الماء، كما تكثر به مراعي سمك «الانكليس» التي يلتصق بسيقانها الخضراء أفراس البحر الصغيرة، ويستلقي فوق القاع وسط الأعشاب والنباتات البحرية سمك «البوتيت» المنقط السام. وفوق هذا كله كانت السرطانات البحرية بألوانها البراقة تسبح وتتشقلب.

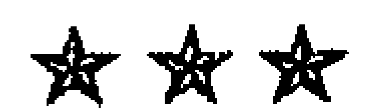
وعلى شاطئ البحر كانت كلاب المدينة الجائعة وخنازيرها تروح وتجيء، وتبحث دون كلل عن أي سمكة أو طائر بحري ميت قد جرفته الأمواج نحو الشاطئ.

★★★

وعلى الرغم من أن الصباح كان ما يزال باكراً، إلا أن الضباب كان كثيفاً فوق الخليج، مما جعل بعض الأشياء تبدو ضخمة وبعضها الآخر يبدو ضئيلاً ومختفياً. كما جعل الضباب جميع الأشياء المتطورة تبدو وكأنها سراب. وكانت الرؤية غير موثوق فيها.

وكان كل من البحر والأرض يتسمان بالوضوح الحاد والغموض الشديد في الوقت نفسه، حتى أن كل ما يراه المرء بعينيه يشبه ما يراه وهو نائم في الحلم.

وربما لهذا يرجع السبب في أن أهالي الخليج كانوا يصدقون الأشياء الوهمية أو تلك التي تبدو خيالية، ويثقون بها، أكثر من ثقتهم بما يرونه بأعينهم.



على الناحية الأخرى من مصب النهر، كانت هناك كتلة من أشجار «المانجروف» تبدو شديدة الوضوح، كما لو كنت تنظر إليها عبر منظار، بينما كانت تبدو كتلة أخرى منها وكأنها سراب أخضر داكن.

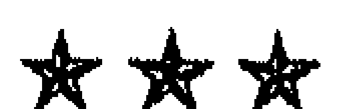
وكان جزء من الشاطئ البعيد مختفياً تماماً وسط الضباب، لا يبدو منه إلا وميض خفيف. في تلك البقعة من الأرض لم تكن هناك يقينية في الرؤية، ولا يستطيع من يعيش هناك أن يجزم بأن ما يشاهده موجود بالفعل أم أنه وهم وخيال. وكان أناس الخليج يعتقدون أن كل الدنيا على هذا الحال.

★★★

كانت أكواخ الصيادين تقع بالقرب من الشاطئ في الجانب الأيمن للمدينة، وأمامها على الشاطئ كانت تستلقي قواربهم التي يصطادون بها.

★★★

سار «كينو» و «جوانا» ببطء نحو الشاطئ، واتجها إلى قاربهما الذي كان هو الشيء الوحيد ذو القيمة العظيمة الذي يمتلكانه. كان قارباً قديماً جلبه جد «كينو» من «ناياريت» ثم آل إلى «كينو» بعد أبيه. ومنذ ذلك الحين صار مصدراً لرزقهم وطعامهم، وحصن أمانهم الذي يتحصنون به من الجوع. وفي كل عام كان «كينو» يعيد طلاء سطحه من الخارج بالمادة شبه الصدفية الصلبة التي ورث سر تركيبها من أبيه.



عندما وصل «كينو» و «جوانا» إلى القارب، مد «كينو» يده ليلمس مقدمته برقة مثلما يفعل في كل مرة، ثم راح يلتقط حجر الغطس والسلة والحبلين من جانب القارب ويضعهم بداخله، ثم طوى بطانيته وألقاها في مقدمة القارب، فأخذتها «جوانا» وسوتها وجعلت منها فراشاً وضعت الطفل «كويوتيتو» عليها، ثم غطته بشالها لتحميه من أشعة الشمس. وكان الطفل «كويوتيتو» في تلك اللحظات هادئاً لا يئن أو يصرخ، على الرغم من أن الورم الموجود بكتفه من أثر لدغه العقرب كان قد زحف نحو رقبته، وانتشر تحت أذنه، كما كان وجهه متورماً ومنتفخاً.

★★★

خاضت «جوانا» في الماء، وراحت تجمع بعض الطحالب البنية، ثم صنعت منها عجينة رطبة وضعتها فوق كتف الطفل المتورم، وكان هذا علاجاً جيداً مثل أي علاج، بل ربما كان أفضل من علاج الطبيب ذاته.. إذ كان فعالاً وبسيطاً ولا يكلف أي نقود. كل ما كان ينقصه (كعلاج) هو وصفة الطبيب المكتوب فيها.

★★★

لم تظهر تقلصات المعدة المتوقع حدوثها للطفل «كويوتيتو»، وربما رجع سبب ذلك إلى أن «جوانا» كانت قد امتصت سم العقرب في الوقت المناسب. لكن «جوانا» لم تكن قد امتصت قلقها على أول مولود لها. وعندما تضرعت إلى العذراء، لم تطلب منها أن تشفي لها الطفل، بل تضرعت إليها من أجل أن توفقهم في العثور

علـى لؤلـؤة يـستطيعون بثمنهـا أن يعـالجوا الطفـل، ويـدفعوا أجـر الطبيب.

★★★

سحب «كينـو» و «جوانـا» القـارب مـن علـى الشاطئ حتـى طفت مقدمته في الماء، وعندئذٍ قفزت بداخله «جوانا»، بينما استمر «كينـو» في دفع مؤخرته حتـى طفا القـارب بكاملـه فـوق سـطح المـاء، وأخذ في الاهتـزاز بفعـل الأمـواج. ثـم بـدأ الاثنـان يجـدفان في تناسـق بمجـدافيهما إلى أن انطلق القارب شاقاً الماء بنعومة، محـدثاً تموجـات خفيفـة حولـه، ومصدراً صوتاً كالهسيس مع تزايد سرعته.

وقبل انطلاق «كينو» و «جوانا» في البحـر، كـان صيادو اللؤلؤ الآخرين قد سبقوهما منـذ مـدة بسيطة، وأثنـاء دقـائق معـدودة تمكـن «كينو» من رؤيتهم عبر الضباب وهـم متجمعـون ومتجـاورون علـى هيئـة العنقود، فوق البقعة التي يرقد بها المحار في قاع البحر.

★★★

هـذا القـاع هـو الـذي رفـع شـأن ملـك إسـبانيا، وجعـل بـلاده قـوة عظمـى في التـاريخ، إذ سـاعده علـى تـدبير نفقـات حروبـه وفتوحاتـه الكثيرة التي خاضها دفاعاً عن مجده، كما ساعده على دفع تكـاليف زخرفة وتزيين الكنائس من أجل خلاص روحه وسلامها في الأبدية.

★★★

قد تتعرض محارة من المحارات الرمادية اللون المتنـاثرة فـوق قـاع البحر، وسط الحصى والحجـارة، والـتي تكـون مـستقرة داخـل صـدفة ذات سـطح خـشن متجعـد الحـواف، يعلـق أعـشاب وكـائنـات بحريـة

دقيقة، لحادثة، فتنفذ حبة رمل صغيرة إلى داخل الصدفة، وتستقر بين أنسجة جسم المحارة - الذي يقوم في شكل من أشكال الدفاع الذاتي والحماية - بكسائها، وتغليفها بطبقة كلسية ناعمة، ويستمر في عملية التغليف هذه إلى أن تسقط فجأة متحررة من أنسجة جسم المحارة، في هبة من هبات المد والجزر، أو عند ارتطام الصدفة بشيء يسبب تحطمها.

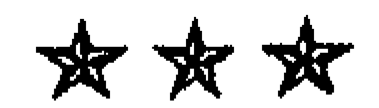
☆☆☆

ولقد ظل الرجال.. الغواصون، لقرون طويلة يغوصون في البحر، ويجوبون قاعه، وينتزعون المحار منه، ويشقونه ويمزقونه بحثاً عن تلك الحبات الرملية المكسية أو اللآلئ.

ولكن اللآلئ كانت مثل الحوادث العارضة، والعثور على واحدة منها ظل دائماً مسألة حظ أو مصادفة سعيدة، أو بمثابة ضربة خفيفة يضربها الإله بيده على ظهر الغواص.

☆☆☆

كانت المياه ناعمة نعومة الزيت حين نزع «كينو» ملابسه وخلع قبعته ووضعها في قاع القارب، ثم مسك بإحدى يديه حجر الغطس المربوط بحبل من الحبلين، ومسك بيده الأخرى السلة المربوطة في الحبل الآخر، ثم انزلق بقدميه من على جانب القارب، فهبط به الحجر سريعاً إلى القاع. وتصاعدت خلفه فقاقيع كثيرة من الهواء، بعدها صفت المياه وراقت. فتمكن من رؤية سطح الماء فوقه. كان السطح مثل مرآة لمعة متموجة مرشوق بها القوارب الطافية فوقه.



تحـرك «كينـو» فـوق القـاع بحـرص وحـذر شـديدين، حتـى لا تتعكـر الميـاه، وتظـل الرؤيـة واضـحة، ثـم شـبك إحـدى قدميـه في الحبـل المربـوط بـه حجـر الغطـس، وراح يعمـل بـسرعة بكلتـا يديـه، مخلصاً المحارات مما تشتبك به في القاع.

بعض هـذه المحـارات تستلقي بمفردهـا في القـاع، بينمـا بعضهـا الآخـر يكـون ملتـصقاً بغـيره ومتجمعـاً مـع بعـضه في كتلـة واحـدة كبيرة.

٭٭٭

كـان الـصيادون يغنّـون لكـل شـيء يحـدث لهـم أو يـصادفهم.. فكانت لديهم أغنيات للسمك وأغنيات للبحـر، وأغنيـات للنـور وأخـرى للظلام، وأغنيات للشمس وغيرهـا للقمـر. وكـل تلـك الأغنيـات كانـت راسخة في أعماق «كينو»، سواء تلك التي ما زالت تتردد على الألسنة، أو تلك الـتي طواهـا النسيان. ولهذا، فبينمـا كـان «كينـو» يمـلأ سـلته بالمحـارات، كانـت تتخلـق بداخلـه أغنيـة: إيقـاعهـا كـان ضـربات قلبـه الـذي استهلك الأوكـسجين مـن الـنفس المحبـوس في صـدره، ولحنهـا كـان يتـشكل مـن ميـاه الأعمـاق ذات اللـون الأخـضر الباهـت، كمـا كـان يتـشكل مـن الكـائنـات البحريـة الـصغيرة المهرولـة والـسابحة في المياه من حوله، ومن سحب الأسمـاك الـتي كانـت تحلـق فوقـه، وتظهـر وتختفي من حين لآخر.

٭٭٭

وداخل تلك الأغنية كانـت هنـاك أغنيـة أخـرى، صـغيرة وعذبـة، كـان «كينـو» يجـد صـعوبة في إدراكهـا رغـم إحـساسه بوجودهـا

الدائم... تلك كانت أغنية اللؤلؤة المحتمل وجودها بداخل محارة من المحارات التي تمتلئ بها السلة.

لم تكن فرصة العثور على اللؤلؤة مؤكدة تماماً، لكن قد يكون الحظ مواتياً، فيكون حليفاً لـ «كينو» الذي كان يعلم جيداً أن «جوانا» التي تنتظره في القارب فوق سطح الماء، كانت منهمكة في ممارسة طقوس سحرها القديم وابتهالاتها بوجه صارم، وأعصاب مشدودة لترغم القدر، وتنتزع الحظ من بين أيدي الآلهة.. قد كانت في حاجة إلى هذا الحظ من أجل كتف طفلها «كويوتيتو» المتورم.

ولأن الاحتياج كان شديداً والرغبة ملحة، فإن اللحن السري الصغير لأغنية اللؤلؤة المحتملة (أو التي يجب أن تكون) كان شديد القوة في ذلك الصباح، حتى أن جملاً لحنية كاملة منه كانت تصعد واضحة وناعمة من أعماق المياه.

✮✮✮

كان «كينو» بكبريائه وفتوته يستطيع البقاء تحت الماء، حابساً الهواء في صدره أكثر من دقيقتين دون أن يشعر بالإجهاد أو الحاجة إلى التنفس، ولهذا كان يعمل بهدوء وتأني منتقياً المحارات الكبيرة التي انغلقت على نفسها بشدة تخفي ما بداخلها، بعد أن تعرضت للإزعاج.

تحرك «كينو» ناحية اليمين في اتجاه ربوة صخرية متداعية لاحت له، كان يغطيها كثير من المحارات الصغيرة، وعندما اقترب منها، رأى تحت صخرة صغيرة عالقة بالربوة محارة ضخمة تستلقي

بمفردها غير مغطاة كما هي العادة بشقيقاتها من المحارات الصغيرة. كانت تلك المحارة مفتوحة قليلاً، ويشع من داخلها وميض شبحي، وفجأة انغلقت المحارة، وراح قلب «كينو» يدق في عنف مع دوي نغمات لحن (اللؤلؤة المتوقعة) الذي كان يسمعه واضحاً في أذنيه. وببطء شديد راح «كينو» ينتزع المحارة من مكمنها، ثم ضمها إلى صدره، ورفس قدمه ليتخلص من حجر الغطس، الذي يجعله ثابتاً بالقاع، وبسرعة صعد جسمه.

كانت عيناه تلمعان من شدة الإثارة، في حين راح بتأنٍ يجذب الحبل المربوط حجر الغطس، ثم جذب سله المحارات وأفرغ ما بها في قاع القارب.

★★★

شعرت «جوانا» بانفعال «كينو» الشديد، فتظاهرت بالنظر بعيداً، كما لو كانت لا تهتم، إذ لا ينبغي أن تتلهف في رغبتها، أو تلح كثيراً في طلب الشيء لأن ذلك - حسب اعتقادها - قد يدفع الحظ بعيداً. وهي بخبرتها تعرف أن المرء ينبغي أن يكون لبقاً ومهذباً جداً، بل ودبلوماسياً عندما يتوسل إلى الآلهة أو يطلب منها شيئاً.

لذلك حبست «جوانا» أنفاسها عندما فتح «كينو» مطواته القصيرة ذات النصل الحاد، ثم نظر إلى المحارات الملقاة في قاع القارب.. كانت تتملكه الحيرة!

فبأي المحارات يبدأ؟!.. هل يبدأ بالمحارة الكبيرة التي دق لها قلبه؟!.. أم يجعلها آخر شيء؟!.. ظل حائراً ومتردداً لحظات. ثم

أخيراً التقط محارة صغيرة، وشق بمطواته العضلة التي تشبه العشفة، والتي تحكم إغلاق حافتي المحارة، وبحث بين طيات اللحم داخلها، فلم يعثر على شيء، فرمى بها في الماء. وكما لو كان يرى المحارة الكبيرة لأول مرة، قرفص في قاع القارب، وتناولها في يده، وراح يقلبها ويفحصها. كان سطحها الخارجي المجعد يلمع ويتحول لونه من الأسود إلى البني، وكان لا يلتصق به سوى القليل من الكائنات البحرية الصغيرة التي عادة ما تلتصق بسطوح المحارات. كان «كينو» يقاوم لهفته الشديدة لفتحها... فما رآه في القاع كان مذهلاً.. ربما كان شيئاً تخيله، وربما كان جزءاً لامعاً من سطح محارة أخرى تحطمت ودخل جزء منها في المحارة الكبيرة... وربما كان وهماً كاملاً... كل ذلك محتمل ومعتاد في هذا الخليج العامر بالضياء، والذي يكتظ بالأوهام والخيالات أكثر من الحقائق والأشياء الواقعية المؤكدة.

***

لم ترفع «جوانا» عينيها عن «كينو» وهو يمسك بالمحارة الكبيرة في يده ويتطلع إليها، ولم تكن قادرة على الانتظار أكثر من ذلك، فوضعت يدها فوق رأس طفلها «كويوتيتو» وهمست:

- افتحها.

وكأنه كان ينتظر أحداً يشجعه، فغرز طرف مطواته بمهارة بين حافتي المحارة، وراح يضغط بقوة عبر العضلة المنقبضة بشدة إلى

أن انبسطت وتفسخت قليلاً، وبرز لحم المحارة الطري، ثم انسحب للداخل، فجذبه بأصابعه، وهناك كانت ترقد:

لؤلؤة كبيرة..

كاملة الاستدارة مثل القمر..

امتصت الضياء واستحوذت عليه ثم رشحته وصفته لتعكسه في توهج فضي بديع.

كانت لؤلؤة كبيرة، في حجم بيضة النورس..

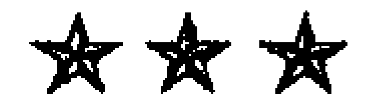
أكبر من أي لؤلؤة شاهدها في حياته، بل أكبر لؤلؤة في العالم.

***

كتمت «جوانا» أنفاسها، ثم شهقت من فرط انفعالها. في حين كان يسري في كيان «كينو» لحن أغنية اللؤلؤة واضحاً وفياضاً وبديعاً، بعدما كان غامضاً وصعباً إدراكه عندما أحس به أول مرة وهو في قاع الماء.

وفي سطح اللؤلؤة رأى «كينو» الحلم يتشكل وهو يتطلع إليها ويقلبها في يده. واقتربت منه «جوانا» لتنظر إليها وهي في يده.. اليد نفسها التي وجه بها ضربة ساحقة إلى بوابة منزل الطبيب، وقد صار لحم مفاصلها الممزق أبيض باهتاً من تأثير ماء البحر. وبشكل غريزي اتجهت «جوانا» نحو الطفل «كويوتيتو» الذي كان يرقد فوق بطانية كينو، وأزاحت عجينة الأعشاب البحرية من فوق الكتف المتورم، ثم نادت بصوت ملهوف على كينو، فأقبل نحوها ونظر إلى الطفل، فوجد الورم قد زال من كتفه، فأيقن أن السم لم يؤثر في جسمه.

فأطبق يده على اللؤلؤة، واجتاحته موجة من الانفعال، فأعاد رأسه إلى الخلف وراح يصرخ في انفعال، وقد تخشب جسمه. فالتفت الصيادون بالقوارب الأخرى، وقد روعهم الصراخ، ثم راحوا يجدفون ويتسابقون في اتجاه قارب كينو.



٣

في كثير من الأحيان تشبه المدينة الكائن الحي أو الحيوان الذي يعيش وسط قطيع من الحيوانات، إذ تبدو كما لو كانت لديها جهازاً عصبياً ورأساً وكتفين وقدمين، وتبدو أيضاً كأنها تمتلك عاطفة وإحساساً كاملاً، في الوقت نفسه الذي تختلف فيه وتتميز كل مدينة عن غيرها من المدن.

ومن الأمور الغامضة والمحيرة كيفية انتقال النبأ وانتشاره بين جنبات المدينة بسرعة مذهلة. فقبل أن يصل «كينو» أو «جوانا» أو أحد من الصيادين إلى أكواخهم، كانت أعصاب المدينة تنبض بنبأ عثور «كينو» على أكبر لؤلؤة في العالم.

وقبل أن ينطلق الأطفال الذين كانوا يلهثون وهم يتسابقون لنقل النبأ كانت أمهاتهن قد عرفن به. في الوقت نفسه الذي اندفع فيه إلى المدينة ذات البيوت الحجرية البيضاء - متجاوزاً منطقة الأكواخ - حتى وصل إلى القسيس الذي كان يتجول في حديقته، فزرع النبأ في عينه نظرة استغراق في التفكير، وتذكر على الفور ما تحتاجه الكنيسة من ترميمات وإصلاحات سائلاً نفسه عن قيمة هذه اللؤلؤة، وعمَّ إذا كان قد قام بالإجراءات الرسمية لزواج «كينو» و «جوانا» في الكنيسة؟ أو قام بتعميد طفلهما «كويوتيتو»؟

كذلك وصل النبأ بسرعة إلى أصحاب المتاجر، فنظروا بحسرةٍ إلى ما لديهم من بضاعة وملابس جاهزة مكدسة فوق الرفوف تنتظر من يشتريها. كما وصل النبأ إلى الطبيب الذي كان يجلس في تلك اللحظة مع امرأة عجوز؛ كل ما كانت تعاني منه هو الشيخوخة، لم تكن لديهما الشجاعة الكافية للاعتراف بذلك.

وعندما أدرك الطبيب بعد تفكير من هو «كينو»، عبس وقال في شيء من الجد والوقار: «إنه زبوني.. وأنا أعالج طفله من لدغة عقرب»، وتأرجحت عيناه قليلاً في جفنيهما المنتفخين، وحلق بخياله في أجواء باريس متذكراً الغرفة التي كان يعيش فيها هناك، وكيف كانت، على الرغم من أنها مجرد غرفة، مكاناً عظيماً وفخماً. ثم نظر إلى جليسته العجوز بينما كان يتخيل نفسه جالساً في مطعم بباريس، والنادل يفتح له زجاجة نبيذ.

وقبل كل هؤلاء الذين وصل إليهم نبأ عثور «كينو» على أكبر لؤلؤة، كان المتسولون المستقرون أمام الكنيسة قد عرفوا، فغمرهم الفرح وشملتهم السعادة لإدراكهم أنه لا يوجد في العالم مانح للصدقات أو فاعل خير أفضل من رجل فقير هبط عليه الحظ السعيد فجأة.

★★★

عثر «كينو» على لؤلؤة العالم.. وفي المدينة بداخل متاجرهم الصغيرة، كان تجار اللؤلؤ يجلسون أمام مكاتبهم في انتظار الصيادين الذين يأتونهم حاملين ما عثروا عليه من لآلئ ليبيعونها.. وفي ذلك الوقت كان هؤلاء التجار يصيحون كالدجاج ويعلو صراخهم، بل ويتشاجرون ويهددون، حتى يصلوا إلى أقل سعر يدفعونه للصيادين.

وكان هناك دائماً سعر معين لا يجرؤون على النطق بأقل منه. بعدما حدث ذات مرة ويئس منهم ومن أسعارهم أحد الصيادين فأخذ لآلئه ووهبها للكنيسة، مفضلاً الثواب على النقود.

في كل مرة، وبعد أن تنتهي عمليات الشراء والبيع، كان هؤلاء التجار يجلسون مع أنفسهم، بينما أصابعهم تقلب في توتر وقلق اللآلئ التي اشتروها من الصيادين، متمنين لو كان ما اشتروه ملكهم، فهم في الواقع على الرغم من كثرة عددهم وظهورهم بمظهر المستقلين عن بعضهم أو المتنافسين، ليسوا سوى وسطاء أو وكلاء لتاجر واحد كبير، يدفع لهم أجراً على أدائهم لهذا الدور.

عندما وصل نبأ اللؤلؤة التي عثر عليها «كينو» إلى هؤلاء التجار اتسمت نظرات عيونهم بالغيظ، والتهبت أناملهم وسرحوا بتفكيرهم حتى وصلوا إلى التاجر الكبير الذي يعملون لديه، والذي لن يعيش بالتأكيد إلى الأبد، وحتماً سيأخذ مكانه يوماً ما واحداً منهم، كما شمل تفكيرهم البداية الجديدة التي قد تتحقق لأي منهم إذا ما توافر له بعضاً من الرأسمال.

★★★

هكذا أصبح «كينو» محور اهتمام وتفكير الناس في «لاباز».. الناس الذين لديهم أشياء للبيع، والناس الذين لهم مصالح تحتاج لمن يحققها. وامتزج معدن اللؤلؤة بمعدن الرجال في بوتقة حقد كبيرة، وترسبت من المزيج رواسب سوداء كريهة، بعدما ارتبطت اللؤلؤة بأحلامهم ومشاريعهم ورغباتهم واحتياجاتهم وحالات حرمانهم

وجوعهم. وشخص وحيد كان يقف في طريقهم؛ هو «كينو»، لذلك أصبح بشكل غريب عدو كل فرد في «لاباز».

☆☆☆

وهكذا أثار نبأ اللؤلؤة شيئاً ما لن ينتهي.. أسود وشريراً، وهذا الشيء الأسود المركز كان شبيهاً بالعقرب أو بالجوع والحرمان الجنسي، وبدأت جيوب الحقد في المدينة تفرز سماً تورمت المدينة وانتفخت تحت وطأته.

☆☆☆

ولم يكن «كينو» أو «جوانا» يتصوران هذا الذي يحدث من حولهما، منذ أن عثرا على اللؤلؤة. فقد كانت السعادة تغمرهما، وكانا منتشيان من الإثارة، ويظنان أن كل من حولهما يشاركهما الفرحة.. مثلما كان حال جوان توماس شقيق «كينو» وزوجته أبولونيا، اللذان كانا يمثلان، علاوة على علاقة القرابة، كل العالم بالنسبة لهما.

☆☆☆

بعد الظهر، عندما مالت الشمس نحو الغرب، وانحسرت عن شبه الجزيرة، وتهيأت لكي تغطس في البحر، بعيداً.. جلس «كينو» مقرفصاً بداخل الكوخ، وإلى جانبه «جوانا»، وقد ازدحم الكوخ بالجيران، وأمسك باللؤلؤة في يده، شاعراً بها دافئة ونابضة بالحياة، وكانت ترن في أذنيه موسيقاها الخاصة الدافئة، بعد أن امتزجت بموسيقا العائلة التي زادتها جمالاً. وكان الجيران يتطلعون إلى اللؤلؤة في يده، متسائلين في إعجاب وذهول عن كيفية هبوط مثل هذا الحظ فجأة على واحدٍ منهم؟!

☆☆☆

تساءل جوان توماس، الذي كان مقرفصاً وملتصقاً بـ «كينو»:

- وماذا ستفعل يا أخي بعد أن تصبح غنياً؟!

فنظر «كينو» إلى لؤلؤته، بينما خفضت «جوانا» جفونها وسحبت الشال قليلاً لتخفي ملامح وجهها المنفعل بالإثارة.

وشكل الوهج المنبعث من اللؤلؤة صور الأشياء التي كان «كينو» يحلم بها كثيراً، ولكنه كان قد توقف عن التفكير بها على اعتبار أنها من المستحيلات. وشاهد «كينو» نفسه وهو يحملق في اللؤلؤة، راكعاً أمام مذبح الكنيسة العالي وإلى جانبه «جوانا» تحمل طفلهما «كويوتيتو». في حين يؤدي القسيس مراسم الزواج الرسمي لهما، بعدما أصبح لديهما النفقات اللازمة لذلك.

ودون أن يشعر نبس بصوت خافت: «سنتزوج في الكنيسة».

ثم عاد ينظر إلى اللؤلؤة، فشاهد بداخلها ماذا كانوا يرتدون وهم واقفون بالكنيسة؛ فرأى «جوانا» تضع على رأسها وشاحاً جديداً بهيجاً لم تستعمله من قبل، وترتدي جونلة طويلة جديدة، وتنتعل في قدميها حذاءً لامعاً جديداً. كما رأى نفسه يرتدي قميصاً أبيض شفافاً، وبنطلوناً جديداً، ويحمل في يده قبعة جديدة، مصنوعة من لباد أسود رقيق، وليست من القش. وينتعل في قدميه حذاءاً جديداً لامعاً برباط، وليس صندلاً كالمعتاد. أما «كويوتيتو» فكان (البريمو).. إذ كان يرتدي بزّة بحار زرقاء صغيرة مستوردة من أمريكا، ويضع على رأسه وشاحاً صغيراً شبيهاً بما قد رآه «كينو» ذات مرة عندما رست عند مصب النهر بالخليج سفينة أجنبية تحمل سياحاً أمريكيين.

كل هذا رآه «كينو» بداخل اللؤلؤة، فقال وكأنه منوم مغناطيسياً: «وسيكون عندنا ملابس جديدة».

وبينما كانت تتصاعد في أذنيه موسيقا اللؤلؤة، وتزداد صخباً، كما لو كانت موسيقا نحاسية لفرقة بأكملها، عكس سطح اللؤلؤة في عينيه صورة رمح جديد.. رمح بحلقة حديدية في نهايته، كان «كينو» يحلم كثيراً بامتلاكه، لا سيما بعدما فقد رمحه القديم عندما كان يصطاد به في العام الماضي.

ثم عكس سطح اللؤلؤة في عينه صورة صادف عقله صعوبة في تصديقها، إذ كانت بالنسبة له من رابع المستحيلات.. وبمثابة قفزة كبيرة في الخيال، بل وأكثر أحلام يقظته جموحاً وشططاً.. تلك كانت صورة بندقية: شركة ونشستر. فاختلجت شفتاه وتردد في النطق، ثم همس بصعوبة شديدة: «وسيكون لدي.. ربما.. بندقية». ثم قال لنفسه، وبالصوت الهامس نفسه: «ولم لا؟!.. طالما سنصبح أغنياء!».

ومع البندقية، التي تجاوزت كل حدود المستحيل، وقفزت فوق كل حواجز الممكنات وغير الممكنات، انطلق خيال «كينو»، واندفع في تصوراته نحو آفاق لا نهائية لرغبات كامنة تفجرت كلها مرة واحدة، بعد أن تحررت من كل قيد كان يكبلها.

☆☆☆

قد يقال: إن الإنسان كائن طماع، لا يشبع أبداً؛ فكلما نال شيئاً، طلب شيئاً آخر. وفي ذلك القول ما فيه من ازدراء وسخرية غير خافية بالإنسان. إذ إن تلك أعظم مواهب الإنسان، وأكثر ما يميزه ويجعله أرقى من كائنات كثيرة غيره، ترضى بما لديها وتقنع بما يقدم إليها.

☆☆☆

هـزَّ الجيران الـذين كـانوا يلتصقون ببعضهم من شـدة زحـامهم داخـل الكـوخ رؤوسـهم في صـمت، وقـد اسـتولت عليهم الدهـشة مـن التصورات الجامحة التي نطق بها «كينو». وهمس بعضهم في الخلف: «ها.. سيكون لديه بندقية!!».

★★★

كانت موسيقا اللؤلؤة تزداد صخباً في رأس «كينو»، وتغمره بإحساس الانتصار، في حين رفعت «جوانا» رأسها، وقد اتسعت جفونها وازداد بريق عينيها من شدة التأثر والإعجاب بجرأة وشجاعة زوجها الذي كان ما زال منطلقاً في تصوراته وأحلامه. فرأى «كويوتيتو» جالساً فوق مقعد صغير، وأمامه منضدة صغيرة في فصل مدرسي، في صورة تشبه ما قد رآه ذات مرة من فتحة باب أحد فصول مدرسة، تصادف مروره بجانبها. كان «كويوتيتو» - في الصورة - يرتدي معطفاً أنيقاً له ياقة بيضاء، وكانت تتدلى على صدره ربطة عنق حريرية عريضة، وكان يكتب على ورقة كبيرة بيضاء.

وهنا نظر «كينو» إلى جيرانه بافتراس وقال: «وسيذهب ابني إلى المدرسة». وظل الجيران في صمتهم وذهولهم، بينما كانت «جوانا» تمسك نفسها بشدة وتحاول التحكم في انفعالها، في حين كانت عيناها تشعان بريقاً وهي تنظر إلى «كينو»، ثم نظرت إلى «كويوتيتو» بين ذراعيها لترى ما إذا كانت تلك التصورات ممكنة أم غير ممكنة.

ثم ازداد وجه «كينو» إشراقاً وسطوعاً بالنبوءة فقال: «وسوف يقرأ ابني ويكتب، وسوف يعرف الحساب، وهذا ما سيجعلنا أحراراً، لأنه سيعرف كل شيء، ونحن ستتوافر لنا المعرفة عن طريقه».

ولم يسبق أن تكلم «كينو» طوال حياته السابقة كل هذا الكلام الكثير مرة واحدة كما فعل حينئذٍ. لذلك فقد انتابه الخوف فجأة، فأطبق يده على اللؤلؤة ليحجب عنها الضوء ولا يعكس سطحها مزيداً من الصور.

كان حاله في تلك الآونة حال من ينتابه الخوف حين يقول سأفعل كذا وأفعل كذا دون أن يكون واثقاً مما يقول، ودون أن تكون لديه القدرة الفعلية أو المعرفة التي تسمح له بذلك.

☆☆☆

بعد تلك اللحظات أدرك الجيران أنهم يشهدون معجزة كبرى، وأن التاريخ ستعاد كتابته ليبدأ عند لؤلؤة «كينو». وأنهم سيظلون يتجادلون في تفاصيل ما سمعوه من «كينو» لسنوات عديدة قادمة، ولن يتوقفوا عن وصف نظرات «كينو»، وكيف كانت عيناه تلمعان وتشعان بريقاً حاداً، وسيعيدون ويزيدون فيما قاله، وسيقول أحدهم إذا تحققت تصورات «كينو»: «كان رجلاً محاطاً بهالة من الضياء مثل القديسين؛ هبطت عليه فجأة بعض القوة، ومنها كانت البداية.. وها أنت ترى كيف صار عظيماً.. أنا نفسي شاهدت ذلك».

أما إذا أخفقت تلك التصورات، فسيقول هذا القائل نفسه: «كانت البداية عندما أصابه جنون أحمق وراح يهذي بكلمات سخيفة. يحفظنا الله من مثلها..

نعم، لقد عاقب الله «كينو» لأنه تمرد على مألوف أوضاعنا وأسلوب حياتنا الذي تعودناه، وها أنتم ترون ما صار إليه حاله، أنا بنفسي شاهدت اللحظة التي غادره فيها عقله».



كان المساء قد حلَّ حين عقدت «جوانا» شالها تحت طفلها «كويوتيتو»، لتتمكن من التحرك وهي تحمله. ثم ذهبت إلى (الكانون) ونبشت ما به من رماد لتكشف عن جمرات الفحم التي ما زالت تختزن ناراً، ثم كسّرت بعضاً من الأغصان ووضعتها بالكانون، وراحت تنفخ إلى أن اشتعلت، وتراقصت ألسنة اللهب فوق وجوه الجيران الذين كانوا ما زالوا مزدحمين في الكوخ، ثم أدركوا أنهم يجب أن ينصرفوا إلى أكواخهم كي يتناولوا عشاءهم، ولكنهم كانوا مترددين في اتخاذ قرار بمغادرة المكان.

***

كانت ظلال النيران تتراقص فوق جدران الكوخ حين سرى همس من فم إلى فم: «أبونا القسيس قادم.. أبونا القسيس قادم». فرفع الرجال قبعاتهم عن رؤوسهم وتراجعوا عن باب الكوخ، ليفسحوا له طريقاً يمر منه، في حين أرخت النساء شالاتهن على وجوههن ونكسن عيونهن. ونهض «كينو» واقفاً هو وشقيقه جوان توماس في اللحظة التي دخل فيها القسيس.

كان القسيس رجلاً أشيب، وذا بشرة تفشي ملامح سنوات عمر طويلة، وله عينان صغيرتان ذات نظرات حادة. وكان يعتبرهم جميعاً أبناءً صغاراً له، ويعاملهم مثلما يعامل الأطفال. قال بصوت وقور مخرجاً الكلمات من فمه كأنه يمنح بركة:

- «كينو» يا بني، يا من سميناه على اسم رجل عظيم، وأب جليل من آباء الكنيسة.. لعلك تعرف أن من كان اسمك مثل اسمه قد روّض الصحراء وخضّر الفيافي، وجعلها أكثر ألفة ورخاء، كما جعل نفوس الناس أكثر طيبة وبهجة.. إن ذلك يا بني مكتوب في الكتب.

فنظر «كينو» نظرة خاطفة إلى رأس «كويوتيتو» الذي كان راقداً ومعلقاً في شال «جوانا»، بينما كان عقله يقول: «إن هذا الطفل بعد أن يكبر ويدخل المدرسة سيعرف على وجه الدقة ما هي الأشياء المكتوبة في الكتب، وما هي الأشياء غير المكتوبة، وساعتها لن يخدعنا أحد»..
وفجأة رنت في رأسه موسيقا خافتة وبطيئة مشكلة لحناً صباحياً شريراً معادياً، فنظر حوله بارتياب باحثاً عن مصدر تلك الموسيقا الشريرة.

ومرة أخرى تكلم القسيس قائلاً:

- لقد بلغني أنك صادفت حظاً سعيداً، ووجدت لؤلؤة عظيمة.

ففتح «كينو» يده ومدها إليه. فشهق القسيس عندما وقعت عيناه على اللؤلؤة ورأى مبلغ جمالها وضخامة حجمها، ثم قال:

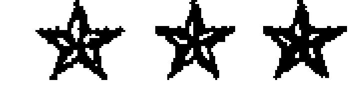
- كلي أمل يا «كينو» يا بني ألا تنسى أن تقدم الشكر الواجب للرب الذي منحك هذه العطية، وفتح لك باب السعادة، وأن تصلي وترجوه أن يرشدك إلى طريق صلاحك في المستقبل.

فهز «كينو» رأسه صامتاً. وقالت «جوانا» في هدوء:

- سنفعل يا أبانا، وسوف نقيم مراسم زواجنا رسمياً في الكنيسة، «كينو» قال ذلك قبل أن تأتي.

ونظرت إلى الجيران، فهزوا رؤوسهم بوقار، تصديقاً لكلامها. فقال القسيس:

- من دواعي سروري أن أرى أن خواطركم الأولى وأفكاركم طيبة، بارك الله فيكم يا أطفالي. واستدار مغادراً الكوخ بهدوء، بعد أن وسّع له الجيران الذين كانوا يسدون باب الكوخ بزحامهم.



أطبق «كينو» يده مرة أخرى على اللؤلؤة، ونظر حوله، وقد سيطرت عليه الشكوك، فموسيقا الشر كانت مستمرة في الدوي بصخب في أذنيه مزاحمة موسيقا اللؤلؤة.

٭٭٭

بدأ الجيران يتسللون واحداً تلو الآخر عائدين إلى أكواخهم، بينما قرفصت «جوانا» بجوار النار، ووضعت قدر الفخار المليء باللوبيا المسلوقة فوق اللهب الصغير، في حين خطا «كينو» نحو مدخل الكوخ وأخذ ينظر إلى الخارج. وكما يحدث دائماً، نفذت إلى أنفه رائحة الدخان المتصاعد من الأكواخ الأخرى. وأثناء تطلعه إلى نجوم السماء التي يغلفها الضباب، شعر ببرودة هواء الليل، فغطى طرف أنفه ببطانيته، وعندما اقترب منه الكلب النحيل هازاً ذيله الذي بدا كأنه راية ترفرفها الرياح، نظر إليه وكأنه لا يراه.

وكما لو كان قد اخترق أفق الوجود الإنساني المعهود وتجاوزه إلى آفاق أخرى بعيدة، باردة ومهجورة، شعر «كينو» بالوحدة وعدم الأمان، وبدت حشرات الليل الزاحفة بأزيزها الحاد، والضفادع بنقيقها المتواصل المزعج، كأنها تعزف لحن الشر.

٭٭٭

عندما سمع «كينو» صوت تبطيط العجين الذي تصنع منه «جوانا» الكعك عاد إليه إحساسه بالدفء والأمان، وانسابت في كيانه مرة أخرى أغنية العائلة. والآن، وبعد كلامه عما سيكون عليه مستقبله، وما تصوره وخطط له منذ أن عثر على اللؤلؤة؛ فإن هذا المستقبل قد أصبح شيئاً حقيقياً أو حقيقة من الحقائق التي

ستخضع حتماً للتجربة والاختبار. وما تصوره لن يفنى أبداً، ولكنه سيظل معرضاً لمحاولات الهجوم والاعتداء عليه.

وهكذا، ما إن لاح في الأفق ما سيكون عليه مستقبل «كينو»، حتى نهضت قوى كثيرة، وتحفزت لبدء الهجوم عليه، وتدميره. وهذا ما كان يدركه «كينو»، ولذلك كان متأهباً لصد الهجوم والاعتداء، وهو على يقين بأن الآلهة لا تحب أن يخطط الرجال لمستقبلهم، ولا تحب نجاحهم في الحياة إلا إذا جاء مصادفة، بل إنها تنتقم وتثأر لنفسها من أي رجل ينجح بمجهوده الخاص.

وبقدر ما كان «كينو» خائف مما خطط له، بقدر ما كان متمسكاً بحلمه وتصوراته، ولذلك عقد العزم على أن يحول جلد جسمه إلى قشرة صدفية صلبة يحتمي بداخلها في مواجهة العالم المعادي له، جاعلاً عينيه وعقله في حالة تيقظ وانتباه شديدين.

***

أثناء وقوفه بباب الكوخ، لمح «كينو» رجلين يقتربان، أحدهما كان يحمل مصباحاً في يده، يضيء الأرض من حولهما. عندما وصلا إلى باب الكوخ تعرف عليهما، فاشتعلت بالألم مفاصل يده اليمنى المجروحة، إذ كان أحدهما هو الطبيب، أما الآخر فخادمه الذي فتح لهم البوابة في الصباح وعاملهم بازدراء.

***

قال الطبيب:

- لم أكن موجوداً بالمنزل عندما جئتم هذا الصباح، ولكن هاأنذا قد جئت مع أول فرصة سنحت لي لأرى الطفل.

وكان «كينو» يقف ساداً باب الكوخ، وعيناه لا تخفيان نظرة الغضب والكراهية الممزوجة بالخوف؛ فذل واستعباد مئات السنين الذي لاقاه كل أهله وجنسه على يد هذا الجنس الغريب الذي منه الطبيب، كان محفوراً في أعماق نفسه، ولذلك قال بجفاء:

- الطفل الآن تقريباً في حالة طيبة.

فقال الطبيب وهو يبتسم مصطنعاً الرقة:

- آه، أحياناً يا صديقي يكون للدغة العقرب مظهر غريب، فيحدث تحسناً ظاهرياً، ثم.. ومن دون إنذار: بوف.

ومط شفتيه ليحدث ما يشبه صوت الانفجار، ويبين كيف يمكن أن يتأزم الوضع فجأة. ثم نقل حقيبته الطبية السوداء الصغيرة من مكانها على الأرض، إلى حيث يسقط عليها الضوء المنبعث من المصباح الذي يحمله الخادم، وتعمّد أن يفعل ذلك ليؤثر منظرها في «كينو»، فهو يعرف أن «كينو» وأمثاله من الصيادين يعشقون أدوات أي مهنة، ويثقون بها.

واستمر الطبيب في الكلام بنغمةٍ فيها كثير من النعومة وقال:

- أحياناً يا صديقي تتسبب لدغة العقرب في ضمور أحد الساقين، أو أن تفقد إحدى العينين بصرها أو يتقوس الظهر.. أوه.. أنا أعرف يا صديقي ما لا تعرفه عن لدغة العقرب، وما يمكن أن ينتج عنها، وأستطيع معالجتها.

★★★

شعر «كينو» أن غضبه وكراهيته يتراجعان أمام خوفه وقلقه على «كويوتيتو»، فهو لا يعرف شيئاً عن هذه الأمور، وربما كان هذا الطبيب يعرف.. ولذا لم يكن بمقدوره أن يجازف ويتصدى بجهله

المؤكد للطبيب بمهارته ومعرفته المحتملة. وهكذا وقع في الشرك، الذي كان يقع فيه دائماً كل أهله البسطاء - الذين سيظلوا كذلك - وهذا ما كان يدركه جيداً، إلى أن يتيقنوا من أن الأشياء الموجودة بالكتب التي قال عنها القسيس، موجودة بالفعل. لم يكن بمقدوره إذاً أن يجازف: لا مع الحياة، ولا مع سلامة «كويوتيتو» وشفائه من مرضه، لذلك تنحى جانباً وترك الطبيب وخادمه يدخلان الكوخ.

☆☆☆

وبينما كانا يدخلان، نهضت «جوانا» من جانب (الكانون) وتراجعت مبتعدة، بعد أن غطت وجه «كويوتيتو» بطرف شالها. وعندما اقترب منها الطبيب ومد يده نحو الطفل، ضمت الطفل إليها بقوة وهي تنظر إلى «كينو». ولما رأت «كينو» يومئ إليها برأسه سمحت للطبيب بأن يأخذ الطفل.

قال الطبيب:

- قرّب الضوء.

فرفع الخادم المصباح إلى أعلى، ونظر الطبيب إلى كتف الطفل المتورم، واستغرق في التفكير، ثم قلب جفن الطفل، ونظر إلى مقلة عينه، بعدها هزّ رأسه وقال:

- تماماً كما توقعت، فالسم تغلغل في جسمه، وسرعان ما سيظهر تأثيره. تعال وانظر، وجذب جفن العين قليلاً للأسفل، ثم قال:

- انظر، إنه أزرق.

فنظر «كينو» بقلق، ووجده بالفعل أزرق، لكنه لم يكن متأكداً هل هو هكذا دائماً أم لا.. كان يشك في الأمر، ولكن الفخ كان قد نُصب، ولم يكن بمقدوره المجازفة.

قال الطبيب، الذي كانت عيناه مبللتين بالدموع دائماً وجفناه منتفخين:

- سأعطيه شيئاً يطرد السم من جسمه.

ثم ناول «كينو» الطفل، وأخرج من حقيبته السوداء زجاجة صغيرة بها بودرة بيضاء، وكبسولة جيلاتينية فارغة، ملأها بالبودرة ثم أغلقها. وأحاطها بكبسولة أخرى، ثم مسك الطفل وضغط على شفته السفلى ليفتح فمه، ودس الكبسولة بأصابعه الغليظة فوق لسانه ودفعها عميقاً في فمه حتى لا يلفظها، ثم التقط من على الأرض الإبريق الصغير المليء بشراب «البولكو»، وسقاه جرعة منه. ثم نظر إلى مقلتي عيني الطفل. وأخيراً مط شفتيه وبدا كأنه يفكر، ثم التفت إلى «كينو» وقال:

- أثناء ساعة واحدة سيظهر تأثير السم، لكني أعتقد أن العلاج الذي أخذه قد ينقذه من الأذى والألم الشديد، سأعود بعد ساعة. وربما أكون قد جئتكم في الوقت المناسب. وسحب نفساً عميقاً، ثم غادر الكوخ، يتبعه خادمه والمصباح في يده.

★★★

كانت «جوانا» التي انتابها قلق شديد بعد كلام الطبيب، تحملق في طفلها «كويوتيتو» الراقد تحت شالها، حين أقبل نحوها «كينو» ورفع الشال ليرى الطفل. وعندما مد يده نحو جفن عين الطفل ليتأكد مما قاله الطبيب، انتبه إلى أن اللؤلؤة ما تزال في يده، فاتجه ناحية صندوق إلى جوار الحائط، وفتحه، وأخرج منه قطعة قماش بالية، لف فيها اللؤلؤة، ثم ذهب إلى ركن من أركان الكوخ، وحفر بأصابعه حفرة صغيرة في الأرض، دفن اللؤلؤة فيها.

★★★

بدأ ينتشر وسط الجيران الموضوع الذي سيسود جميع أحاديثهم ونقاشاتهم لفترة طويلة من الزمن، حتى يروا ما ستؤول إليه الأمور مع «كينو» ولؤلؤته. فأخذوا يشيرون لبعضهم البعض مستخدمين أصابع أيديهم، ليبينوا مدى ضخامة اللؤلؤة ومدى جمالها.

وبدءاً من تلك اللحظة سيأخذون على عاتقهم مراقبة «كينو» و «جوانا» عن قرب ليروا هل ستدير الثروة رأسيهما وتغيّر حالهما، مثلما تفعل مع كل الناس؟.. وكان كل واحد من الجيران يدرك جيداً الدافع الحقيقي لمجيء الطبيب واهتمامه بأمر الطفل، لا سيما أنه لم يكن موفقاً في إخفاء نواياه.

☆☆☆

وخارج الأكواخ، عند مصب النهر، تلألأ سرب من الأسماك الصغيرة المتراصة بانتظام شديد إلى جانب بعضها البعض، وهو يشق المياه، ويكاد يقفز خارجها محاولاً الهروب من سرب آخر من الأسماك الكبيرة كان يطارده، ويندفع وراءه في سرعة كبيرة لينقض عليه ويلتهمه. وكان باستطاعة الناس في أكواخهم سماع الهسيس الممتزج بصوت المياه أثناء تلك المذبحة السميكة.

☆☆☆

مرة أخرى أقبل الكلب الهزيل، ووقف أمام باب الكوخ، وراح ينظر إلى «كينو»، الذي ما إن التفت إليه، حتى شرع في هز ذيله بشدة لدرجة أن نصف جسمه الخلفي كاد يتخلع من شدة الهز، ثم هدأ وتوقف عن هز ذيله عندما حول «كينو» نظره بعيداً عنه. وظل يراقب «كينو» وهو يأكل اللوبيا من صحن فخار صغير أمامه، حتى أتى عليها

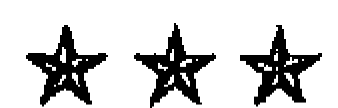
كلها ومسح الصحن بقطعة من الخبز دسها في فمه، ثم غطى ما نزل في جوفه بشراب «البولكو». وما إن بدأ يلف سيجارة حتى سمع «جوانا» وهي تناديه بصوت ملهوف. فالتفت إليها، فوجد الرعب والفزع في عينها، فنهض من مكانه بسرعة، وكسّر حزمة من الأغصان الجافة ألقاها فوق النار المشتعلة بالكانون ليزيد من إضاءة المكان، ثم وقف إلى جانب «جوانا» ونظر إلى وجه «كويوتيتو» فرآه قد ازداد احتقاناً، كما رأى (زوره) يتحرك من دون توقف، في حين كان ينساب من بين شفتيه لعاب كثيف، وكانت بطنه تتقلص بشدة. فقال:

- إذاً، كان الطبيب يعرف.

قال ذلك على الرغم من أن الشك كان يسيطر عليه منذ وقع بصره على زجاجة البودرة البيضاء والكبسولة. وراحت «جوانا» تترنح من جانب إلى جانب بالكوخ وهي تدندن أغنية العائلة بنغمات حزينة، كما لو أن هذه الأغنية ستزيح الخطر وتبعد الشر. وفي حين كان الطفل مستمراً في التلوي والتقيؤ بين ذراعي «جوانا»، كان القلق الشديد يسيطر على «كينو» الذي بدأ يحقق في رأسه موسيقا الشر المصاحبة لأغنية العدو، لتكتسح دندنة «جوانا» وأغنيتها العائلية.

★★★

وفي منزله كان الطبيب قد انتهى من شرب الكاكاو، وراح يمضغ في تأن بقايا البسكويت المتساقط من فمه، ثم مسح أصابعه في فوطة صغيرة على صدره، ونظر إلى ساعته، ثم نهض وأمسك في يده حقيبته الطبية.



ووسط الأكواخ، كانت أنباء تدهور صحة الطفل «كويوتيتو» قد انتشرت كالعادة بسرعة، فالمرض كعدو للفقراء، يأتي في المرتبة الأولى بعد الجوع، من حيث خطره. قال بعض الجيران في هدوء:

- الحظ، كما ترون، يأتي بأفضل الأصدقاء.

فأومأ المحيطون به برؤوسهم، ثم نهضوا وهرولوا في الظلام، بعد أن غطى كل منهم أنفه بطرف بطانيته ليحتمي من برد الليل. ومرة أخرى تزاحموا بالكوخ، وراحوا يتأملون الطفل الصغير، وهم يدلون بتعليقات عن الهم والنكد الذي يحشر نفسه في أوقات بهجة الناس وفرحهم، فيفسد عليهم سعادتهم. وقرفصت النسوة العجائز إلى جوار «جوانا» محاولات أن يقدّمن لها أي عون أو مساعدة، وجاهزات في الوقت نفسه لمواساتها إذا ما تأزمت الأمور.

★★★

وسرعان ما أقبل الطبيب، يتبعه خادمه. فانفضت النسوة العجائز من حول «جوانا»، كما لو كنّ دجاجاً، فأمسك بالطفل وراح يفحصه متحسساً رأسه، ثم قال:

- السم اشتغل.. لكني أعتقد أن بإمكاني القضاء عليه.. سأبذل كل طاقتي.

ثم طلب كوباً من الماء، وضع فيع ثلاث قطرات من النشادر، ثم فتح فم الطفل وصبه فيه، فبقبق الطفل وصرخ مذعوراً، في حين لم تفارقه نظرات «جوانا».

ثم قال:

- من حسن حظكم أنني أعرف كل شيء عن سم العقرب، وإلا... وكان يريد أن يصدر بصوته صوتاً شبيهاً

بالانفجار مثلما فعل من قبل، ولكنه توقف عن ذلك واكتفى بهز كتفيه.

☆☆☆

ولأن «كينو» كان يرتاب في الأمر منذ بدايته، فلم يرفع نظره عن حقيبة الطبيب المفتوحة، ولا عن زجاجة البودرة البيضاء.

وتدريجياً، هدأت تقلصات بطن الطفل، واسترخى بين يدي الطبيب، ثم تثاءب بعمق ونام، بعد أن أعياه القيء، فوضعه الطبيب بين ذراعي «جوانا» وهو يقول:

- سيتحسن الآن... لقد كسبت المعركة!

فنظرت إليه «جوانا» بإعجاب، وبينما كان يغلق حقيبته قال مصطنعاً الرقة والحياء موجهاً الكلام إلى «كينو»:

- متى ستكون يا صديقي قادراً على دفع فاتورة العلاج؟

فقال «كينو»:

- فور أن أبيع اللؤلؤة.

فتساءل الطبيب بخبث وكأنه لا يعرف:

- وهل لديك لؤلؤة؟!

وعندئذ صاح كل الجيران المجتمعين في الكوخ في نفس واحد وكأنهم مجموعة منشدين:

-«كينو» عثر على أكبر لؤلؤة في العالم!

واستخدموا أصابعهم للتدليل على مدى ضخامتها. ثم قالوا في صخب:

- «كينو» سيصبح رجلاً غنياً.. فلؤلؤته لم نر مثيلاً لها من قبل.

فنظر الطبيب باندهاش مصطنع وقال:

- أنا لم أسمع عنها.. حسناً... لكني أرجو أن تكون محتفظاً بها في مكان آمن.. أم تحب أن أحتفظ لك بها في خزانتي الخاصة؟!

وفي تلك اللحظة، كان «كينو» ينظر نحو الأرض، وكان خداه غائرين بشدة، فقال:

- أنا أحتفظ بها في مكان آمن، وغداً سأبيعها، وأدفع لك.

فهز الطبيب كتفيه، كأنه لا يبالي أو يهتم، لكن نظرات عينيه لم تفارقا عيني «كينو»، إذ كان متأكداً أن اللؤلؤة لا بد مدفونة في مكان ما بالكوخ، وأن «كينو» ربما تفلت منه دون أن يشعر نظرة إلى مكانها، ولذلك عاد إلى القول:

- سيكون شيئاً مؤسفاً حقاً لو سرقت منك تلك اللؤلؤة قبل أن تتمكن من بيعها.

ثم لمح عيني «كينو» تحلقان لا إرادياً، فوق الأرض الترابية للكوخ بالقرب من عمود جانبي يسند سقفه.

☆ ☆ ☆

بعد أن انصرف الطبيب، غادر الجيران عائدين على مضض إلى أكواخهم، وقرفص «كينو» إلى جانب الكانون الذي كان متوهجاً بالنيران المشتعلة فيه، وراح يصغي لأصوات الليل المعتادة: الاكتساح الهادئ لأمواج البحر القليلة على الشاطئ، ونباح الكلاب البعيدة، وزحف النسيم من بين شقوق جدران الكوخ. وكان يصل إلى مسامعه صوت حديث الجيران الخافت، الذين لا يستغرقون عادة في نومهم طوال الليل، بل يستيقظون من حين لآخر ليتحدثوا قليلاً، ثم يعاودون نومهم.

وبعد مدة قصيرة نهض «كينو» واتجه نحو باب الكوخ، وراح يشم نسيم هواء الليل العليل، وينصت لأي صوت غريب قد يصدر عن حركة اختباء أو تلصص، كما راح يفتش بعينيه في الظلام الحالك حوله، في حين كانت رأسه تمتلئ بموسيقا الشر. كان في تلك اللحظة شرساً وخائفاً، ولذلك، فبعد أن عاين الجو المحيط بالكوخ في ظلام الليل بحواسه، اتجه إلى المكان الذي دفن فيه اللؤلؤة. ونبش الأرض وأخرج اللؤلؤة، ثم حفر حفرة صغيرة أخرى تحت حصيرة النوم، دفنها فيه وسوى التراب فوقها. وبعد أن انتهى من ذلك سألته «جوانا» التي كانت تراقبه بعيونها:

- ممن تخاف؟

ولأنه لم يكن في ذهنه أحداً معيناً يخاف منه، أجاب:

- من كل الناس.

كان يشعر بشيء صلب وقاس كالصدفة، يزحف نحوه ليلتف حوله ويخنقه. وأخيراً رقد فوق حصيرة النوم إلى جانب «جوانا»، التي لم تضع طفلها «كويوتيتو» في صندوقه المعلق مثل كل ليلة، وإنما احتضنته بين ذراعيها وهي راقدة.

وظل ذهن «كينو» مشتعلاً بالتفكير أثناء رقاده، فرأى فيما يشبه الحلم طفله «كويوتيتو» وهو يقرأ في كتاب ضخم، في حجم الكوخ، وحروفه كبيرة في حجم الكلاب، وكانت الكلمات تتراقص وتتقافز فوق الصفحات، ثم فجأة اسودت صفحة الكتاب وأظلمت، ومع الظلام عادت من جديد موسيقا الشر. فتقلب على جنبيه فوق الحصيرة ثم استيقظ مذعوراً، وقعد على الحصيرة، وراح يصغي.

★★★

انبعث من أحد أركان الكوخ صوت خافت. بدا كأنه خاطر أو لمسة قدم خفيفة فوق الأرض، أو صوت تنفس مكتوم. فحبس «كينو» أنفاسه وراح ينصت بتركيز وهو على يقين بأن ذلك الشيء الخفي أيا ما كان، حتماً حبس أنفاسه هو الآخر. ومرت لحظات لم يصدر أثناءها أي صوت، حتى ظن أنه ربما كان يتخيل، ولكن يد «جوانا» زحفت نحوه لتهزه وتحذره في الوقت الذي عاد فيه الصوت من جديد.

☆☆☆

في تلك اللحظات كان صدر «كينو» يغلي بخوف مسعور وغضب، فمد يده نحو صدره وأخرج سكينه التي تتدلى من رقبته كالعقد، ثم قفز فجأة مثل قط بري متوحش في اتجاه ذلك الشيء الخفي الذي كان موقناً بأنه هناك في الركن. وأحس بملمس ثياب، فراح يطعن بقوة ولكن الطعنة طاشت، فطعن مرة أخرى، وهو يشعر بسكينه تنفذ عبر شيء كالثياب. وفجأة جاءته ضربة قوية فوق رأسه، جعلتها تفجر بالألم الشديد. ثم أعقب تلك الضربة هرولة خفيفة ثم عدو سريع لشبح يخرج من الكوخ. بعده ساد سكون. ثم شعر «كينو» بدماء دافئة تسيل من جبهته، وسمع «جوانا» تناديه بصوت خائف، في حين أحس ببرودة شديدة وهو يتلمس طريقه نحو حصيرة النوم.

وشرعت «جوانا» بسرعة في إشعال نار الكانون، ثم جلبت شمعة صغيرة كانت تحتفظ بها للنذور، أشعلتها ووضعتها إلى جانب الكانون لتزيد من إضاءة المكان، ثم راحت تمسح الدماء من فوق

جبهة «كينو» بطرف شالها الذي بلّلته بالماء، في حين كان يردد بصوت خشن:

- الأمر بسيط.. الأمر بسيط.. لا تنزعجي؟

وكانت نظراته باردة، وداخله كانت تنمو كراهية وليدة.

☆☆☆

وطفا إلى السطح ذلك الغضب والتوتر اللذان كانا يغليان ويفوران في أعماق «جوانا»، فصاحت بانفعال وحدة:

- هذا الشيء هو الشر بعينه.. هذه اللؤلؤة مثل الخطيئة، وسوف تدمرنا. وازدادت نبرات صوتها ارتفاعاً وقالت:

- ارمها بعيداً يا «كينو».. دعنا نحطّمها بين الصخور... أو ندفنها وننسى مكانها... أو نرميها في البحر لتعود من حيث أتت.. فهي شر، وجلبت لنا معها الشر.

وفي ضوء النيران كانت شفتاها وعيناها تنبضان بالخوف، في حين كان يبدو على وجه «كينو» الإصرار والتصميم فقال:

- هذه فرصتنا الوحيدة، لا بد أن يذهب ابننا إلى المدرسة، ولا بد أن يخرج من القمقم الذي نعيش فيه.

فصرخت «جوانا» في وجهه قائلة:

- إنها ستدمرنا جميعاً.. حتى «كويوتيتو» ستدمره.

فقال «كينو»:

- اسكتي.. ولا تصرخي أكثر من ذلك.. في الصباح سنذهب لنبيعها، وعندئذ سيذهب الشر، ولن يبقى إلا الخير، فاسكتي الآن.

ونظر بعبوس إلى النيران القليلة في الكانون، ثم انتبه إلى أن السكين ما زالت في يده، فرفعها اتجاه الضوء الشحيح ونظر إليها،

فرأى عليها خطاً رفيعاً من الدم الجاف، وكان على وشك أن يمسحها في بنطلونه، ولكنه أدرك نفسه وغرزها في التراب فذهبت آثار الدماء منها.

★★★

بدأت الديوك البعيدة في الصياح، وتغير الجو، وبدأ الصباح ينسج أول خيوطه، فيما راحت نسائم الفجر تداعب المياه عند مصب النهر، وتموّجها، وتهمس بين أشجار المانجروف على الشاطئ. وكانت أمواج الخليج القليلة تواصل خبطها للشاطئ المفروش بالحصى والأصداف المتكسرة، في إيقاع منتظم التصاعد.

وأزاح «كينو» حصيرة النوم، ونبش مكان اللؤلؤة، وأخرجها، ووضعها أمامه، واستغرق في تأملها، وهي تغمز وتتلألأ في ضوء الشمعة الصغيرة، وذهب عقله لجمالها وفتنتها، بينما تنبعث من داخلها موسيقاها الخاصة الواعدة بالبهجة والأمل في مستقبل آمن خالٍ من المرض والجوع والإهانة.

وبينما كان يتطلع إلى اللؤلؤة، صفت نظرة عينيه، واسترخت عضلات وجهه، ورنت في أذنيه من جديد موسيقا مياه الأعماق ذات اللون الأخضر الباهت التي تعشقها نفسه.

وكانت «جوانا» تراقبه دون أن يشعر بها، فرأته يبتسم. ولأنهما كانا شيئاً واحداً وهدفاً واحداً في حياة واحدة، فقد ابتسمت هي الأخرى، ليبدآ يومهما الجديد بالأمل.

★★★



تعتبر الكيفية التي تحافظ بها أي مدينة صغيرة على سلوكها العام المنتظم، والمرتبط في الوقت نفسه بالسلوك الخاص المختلف والمتنوع لمجموع أفرادها؛ من الأمور الملغزة والمثيرة للعجب.

ودائماً، لا بد أن ينسجم سلوك أي شخص رجلاً كان أو امرأة أو حتى طفل صغير مع نمط السلوك العام المألوف والمتبع من كل أشخاص المدينة.

فإذا فرضنا أن شخصاً واحداً شذّ في سلوكه، أو خطا خطوة واحدة بعيداً عن هذا السلوك المألوف والمتبع؛ فإن أعصاب المدينة مثلها في ذلك مثل الكائن الحي ستتوتر وتدوي ناقلةً عبر شبكة اتصالاتها البلاغات والتقارير، إلى أن يعود هذا الشخص لحالة ارتباطه وانسجامه السلوكي مع السلوك العام للمدينة.

وبهذا الشكل يتحقق ارتباط الشخص أو الوحدة الواحدة بباقي الوحدات، ويتأكد ارتباط الجزء بالكل.

☆☆☆

وهكذا في كل أنحاء مدينة «لاباز» كان معروفاً منذ الصباح الباكر أن «كينو» ذاهب ليبيع لؤلؤته.

كان ذلك معروفاً وسط الجيران، وفي كل أكواخ الصيادين، كما كان معروفاً لأصحاب متاجر البقالة. أيضاً كان معروفاً ومتداولاً

بين صبيان الهيكل في الكنيسة، وبين راهبات الدير اللاتي كن يهمسن به بعد أن تسرب إليهن. وبالطبع كان المتسولون المستقرون بشكل دائم أمام مدخل الكنيسة يعرفون، فهم بالضرورة أول من سيحضر عملية البيع، ليأخذوا نصيبهم من ثمار هذا الحظ السعيد الذي هبط على «كينو». وحتى الأولاد الصغار المنتشرين بالشوارع كانوا يعرفون.

وقبل كل هؤلاء كان تجار اللؤلؤ يعرفون وينتظرون. كان كل واحد منهم يجلس في متجره وأمامه صينيته الفضية الصغيرة المبطنة بالقطيفة السوداء، يدحرج عليها بعض ما لديه من لآلئ، ويتأمل دوره في الأحداث. وعلى الرغم من أن هؤلاء التجار كانوا لا يكسبون غير مرتباتهم الثابتة التي يدفعها لهم التاجر الكبير، إلا أن الإثارة التي في صيد الزبون والإيقاع به كانت تستهويهم، بالإضافة إلى البهجة والرضا الذي يشعرون به عندما ينجحون في تخفيض السعر الذي يشترون به اللؤلؤ إلى أقل حد ممكن، دونما اعتبار لمكافأة أو ترقية أو حتى مُجرد كلمة ثناء يتلقونها من تاجرهم الكبير. تحكمهم في ذلك باستمرار القاعدة الثابتة في دنيا التجارة والأعمال؛ وهي أن أسعد وأفضل مشترٍ هو الذي يشتري بأقل الأسعار.

☆☆☆

كانت شمس ذلك الصباح شديدة الحرارة، بخرت ماء المصب والخليج، وسحبت البخار، وعلقته في الهواء على هيئة غلالات رقيقة ذات وميض. مما جعل الرؤية غير واضحة. وإلى الشمال من المدينة، وعلى بعد نحو مئتي متر، تعلّق في الهواء منظر جبل عالٍ تزين منحدراته أشجار الصنوبر، وأعلى خط هذه الأشجار كانت ترتفع قمة صخرية

هائلة. وعلى الشاطئ كانت تصطف قوارب الصيادين، الذي كانوا قد قرروا عدم الخروج إلى البحر للصيد أو الغطس بحثاً عن اللؤلؤ، وفضلوا ألا تفوتهم مشاهدة أحداث اليوم المثيرة.

★★★

أما جيران «كينو»، فقد كانوا يجلسون في أكواخهم يتناولون إفطارهم، ويتحدثون عما كانوا سيفعلونه إذا ما عثروا على مثل تلك اللؤلؤة.

فقال أحدهم إنه كان سيقدمها هدية للبابا المقدس في روما. وقال آخر إنه كان سيقيم بثمنها قداسات لأرواح عائلته التي صعدت إلى السماء منذ مئات السنين، وقال ثالث إنه كان سيأخذ النقود ويوزعها على فقراء ومساكين «لاباز»، واستعرض في حديثه جميع أنواع الصدقات وأعمال الخير التي يمكن أن يقوم بها.

وتمنى كل الجيران ألا تغير الثروة «كينو»، أو تجعل حاله مثل حال كل الأثرياء؛ فتزرع في كيانه طباعاً شريرة أخرى، كالجشع والكراهية وبرود المشاعر. وقالوا: وتلك الزوجة الطيبة: «جوانا»، والطفل الجميل: «كويوتيتو»، ومن سيأتي في المستقبل، أي أسف وأي خسارة إذا دمرتهم تلك اللؤلؤة!!

وأما «كينو» و «جوانا»، فقد كان هذا الصباح بالنسبة لهما هو صباح كل صباحات حياتهما، لا يعادله إلا الصباح الذي ولد فيه «كويوتيتو». واعتباراً من الآن، سيعيدان ترتيب كل أيام حياتهما، فيقولان: «حدث كذا قبل أن نبيع اللؤلؤة بعامين... أو «حدث كذا بعد أن بعنا اللؤلؤة بستة أسابيع».



ألقت «جوانا» بتحذيراتها للرياح قبل أن تخرج مع «كينو» ليبيع اللؤلؤة، ثم بدلت ملابس «كويوتيتو»، وألبسته الملابس التي كانت تدخرها ليوم تعميده. ومشطت شعرها وضفرته ضفيرتين، ربطت نهاية كل منهما بشريط أحمر، ثم ارتدت جونلة وبلوزة زواجها. كانت الشمس في ربع السماء عندما أصبحا جاهزين للخروج..

وكانت ملابس «كينو» البيضاء البالية قد صارت نظيفة بعد أن غسلتها «جوانا» خصيصاً لهذه المناسبة. وكان هذا هو آخر يوم في عمر تلك الملابس، إذ سيكون لدى «كينو» غداً وربما بعد ظهر هذا اليوم ملابس أخرى جديدة.

★★★

ارتدى الجيران، الذين لم تفارق عيونهم باب كوخ «كينو»، ملابسهم واستعدوا. لم يكن لديهم أي شعور بالخجل من ارتباطهم «بكينو» والذهاب معه، فذلك كان متوقعاً منهم، فتلك لحظة تاريخية لا يجوز أبداً أن تفوتهم، كما إن عدم ذهابهم معه سيعتبر علامة على عدم الصداقة وسوء الجوار.

★★★

وضعت «جوانا» الشال على رأسها بكل عناية، ولفته حول مرفق ذراعها، وجمعت طرفه في يدها اليمنى بحيث يصنع ما يشبه الأرجوحة الشبكية، وضعت فيها «كويوتيتو»، وجعلته يطل برأسه من الشال، بحيث يستطيع أن يرى ما يحدث حوله، فيتذكره في المستقبل.

ووضع «كينو» قبعة القش الكبيرة فوق رأسه، ومر عليها بيده ليتأكد من وضعها الصحيح، وأنها ليست مائلة إلى الخلف أو إلى أحد

الأطراف، كما يرتديها الشاب الأعزب المتعجرف، وليست في وضع أفقي مسطح مثلما يرتديها كبار السن، وإنما تميل قليلاً إلى الأمام لتظهر التجهم والجدية، فهناك أمور كثيرة يمكن استنتاجها من درجة ميل القبعة. ثم دس قدميه في الصندل. ولم ينس أن يضع اللؤلؤة الملفوفة في قطعة قديمة من جلد الغزال داخل محفظته الجلدية الصغيرة، التي وضعها في جيب قميصه، وأخيراً طوى بطانيته بعناية، ووضعها فوق كتفه الأيسر بعد أن لفها بشريط من القماش مسكه في يده. ثم خطا بخطوات بطيئة خارج الكوخ، وتبعته «جوانا» وهي تحمل «كويوتيتو» في أرجوحته الشبكية. وبينما كانا يسيران على الطريق الترابي الضيق المتجه إلى المدينة انضم إليهما الجيران.

★★★

كانت الأكواخ تقذف بالناس من جوفها، كما كانت أفنيتها تتقيأ الأطفال المهرولين. ونظراً لخطورة المناسبة ودقتها فقد كان يسير إلى جانب «كينو» في المقدمة رجل واحد فقط هو «جوان توماس» شقيقه الذي راح يحذره قائلاً:

يجب أن تكون حريصاً وتتأكد من أن التجار لن يغشونك.

ووافقه «كينو» قائلاً:

- طبعاً، سأكون حريصاً جداً.

فقال «جوان توماس»:

- نحن لا نعرف الأسعار التي يدفعها التجار في الأماكن الأخرى، ولا نعرف ما إذا كان السعر الذي يحدده لنا التجار هنا مناسباً أم لا.

فرد عليه «كينو»:

- هذا صحيح، ولكن ماذا نفعل ونحن نعيش هنا، ولا نعرف أحداً في مكان آخر.

★★★

وبينما كانا يسيران تزايد حشد الجيران من خلفهما، واستمر «جوان توماس» في تبادل الحديث مع أخيه بصعوبة، فقال:

- قبل أن نولد، فكر الناس في وسيلة يحصلون بها على مزيد من النقود، وسعر أفضل للؤلئهم، ففكروا في اختيار رجل من بينهم، يثقون به، يكون مندوباً عنهم، ويأخذ اللؤلؤ ويذهب به إلى العاصمة ليبيعه بثمن أكبر، ومقابل ذلك يأخذ قدراً من ثمن البيع، وبذلك يتفادون غش التجار هنا.

فأومأ «كينو» برأسه وقال:

- أعرف.. ولقد كان تفكيرهم سليماً.

فقال «جوان توماس»:

- وأنا متفق معك في أن تفكيرهم كان سليماً، ولكن ماذا حدث؟.. لقد عينوا الرجل وجمعوا اللؤلؤ وسلموا له وذهب.. ومن يومها لم يسمعوا عنه وضاع اللؤلؤ.. وعلى الرغم من ذلك، اختاروا رجلاً آخر، وعهدوا إليه بالمهمة، ومرة أخرى لم يسمعوا عنه بعد أن ذهب. فنفضوا يدهم من التفكير في مثل هذا الأمر، وعادوا إلى طريقتهم القديمة وإلى التجار هنا.

فقال «كينو»:

- أعرف.. فلقد سمعت تلك الحكاية من أبي، لقد كانت فكرة جيدة، ولكن يبدو أنها كانت مخالفة للتعاليم الدينية. فلقد

سمعت ذات مرة أبونا القسيس يعلّق على ذلك ويقول: إن ضياع اللؤلؤ كان عقابا من الرب حلّ بأولئك الذين حاولوا ترك مواقعهم وتغيير مراكزهم، وقال: إن كل رجل وكل امرأة مثل جندي الحراسة يحدد له الرب مكاناً ليقف فيه في القلعة الكونية، فالبعض يكون في أبراج القلعة، وكل واحد ينبغي أن يظل ثابتاً في موقعه لا يغيره، وإلا تعرضت القلعة للخطر وعدوان شياطين جهنم.

فقال «جوان توماس»:

- آه، لقد سمعت تلك الموعظة أنا أيضاً، ويبدو أن أبانا القسيس يلقيها في كل عام مرة على الأقل.

★★★

واصل الشقيقان مسيرهما، وهما ينظران بنصف عين، تماماً مثلما كان يفعل آباؤهما وأجدادهما على مدى أربعمئة عام مضت، منذ حلّ الغرباء والأجانب لأول مرة ببلادهما، مسلحين بدعاويهم المزيفة وحججهم الباطلة، علاوة على البارود الذي يدعم سيطرتهم وسلطانهم. وأثناء هذه الأعوام الطويلة لم يتعلم آباء «كينو» وأجداده غير وسيلة دفاع واحدة: النظر بنصف عين وزم الشفتين، والانعزال وعدم الاحتكاك أو الاقتراب من هؤلاء الغرباء، وكانت هذه الوسيلة بمثابة الجدار السميك الذي يحتمون خلفه، فظلوا في أمان بعيداً عن بطش هؤلاء الغرباء الذين لم يستطيعوا هدم هذا الجدار طوال هذه المئات من الأعوام.

★★★

اتسم موكب الجيران الذي صاحب «كينو» في طريقه نحو المدينة بالهيبة والوقار. فقد كانوا يشعرون بأهمية هذا اليوم، ولذلك

عندما كان بعض الصبية يظهرون أي ميل للتشاجر، أو الصياح، أو يحاولون خطف القبعات من فوق الرؤوس، أو ينكشون شعورهم، أو يقومون ببعض الحركات الخليعة. كان الكبار يهمسون لهم ويزجرونهم ليلتزموا بالصمت ويسيروا في هدوء. كان يوماً مهماً، حرص الجميع على أن يشهدوا أحداثه، لدرجة أن رجلاً عجوزاً جاء يحمله ابن أخيه فوق كتفيه العريضين، ليشهد بعينيه ما سوف يحدث.

★★★

بعد أن تجاوز الموكب منطقة الأكواخ، ودخل نطاق المدينة ذات البيوت الحجرية والشوارع الواسعة ذات الأرصفة العريضة، ومر من أمام الكنيسة التي تتوسط ميداناً فسيحاً من ميادينها. انضم إليه المتسولون الذين كانوا في انتظاره، كما تطلع إليه البائعون وهو يمر أمام متاجرهم، وبسبب الموكب فقدت صالات الحلاقة والمقاهي زبائنها، مما اضطر أصحابها إلى إغلاقها والانضمام إلى الموكب، على الرغم من أن الشمس كانت حامية وتلهب الشوارع بحرارتها.

★★★

كانت أنباء الموكب تسبقه وتعدو أمامه، في حين كان تجار اللؤلؤ يجلسون في متاجرهم المعتمة أمام مكاتبهم الصغيرة متوتري الأعصاب، وفي منتهى اليقظة، وقد وضعوا أمامهم بعض الدفاتر والمستندات التي تعطي إيحاءً بانهماكهم في العمل، وأنهم ليسوا في انتظار «كينو» أو لؤلؤته، كما أخفوا اللؤلؤ الخاص بهم؛ إذ ليس من الحنكة أن يظهروا لؤلؤاً أقل جودة إلى جانب لؤلؤة سمعوا الكثير عن ضخامتها وعن جمالها.

★★★

في شارع واحد ضيق من شوارع المدينة تتجمع متاجر اللؤلؤ وتلتصق ببعضها. ولهذه المتاجر نوافذ مزودة بقضبان حديدية وستائر تحجب ضوء الشارع عنها، وتجعلها معتمة بعض الشيء. وفي واحد من تلك المتاجر كان يجلس تاجر من هؤلاء التجار. كان بديناً بشكل لافت وبطيئاً في حركته، وجهه ذو ملامح طفولية بشوشة، وعيناه توحيان بالود والألفة. كان دائم التحية وكثير الترحيب بزبائنه، ومولعاً بالسلام باليد، وكان مرحاً أو هكذا يبدو، يحفظ كثيراً من الطرائف والنوادر، وفي الوقت نفسه كان بارعاً في إظهار الحزن والأسى إذا لزم الأمر ذلك، ففي عز الفرح والابتهاج يذكر عمته أو خالته التي ماتت، فتترقرق عيناه بالدموع حزناً على موتها. واستعداداً لهذا الصباح، كان قد وضع فوق مكتبه الصغير مزهرية بها زهرة واحدة «هيبسكوس» قرمزية، وإلى جانبها صينية اللؤلؤ الفضية ذات السطح المكسو بقطيفة سوداء. وكان قد حلق ذقنه، وبالغ في تنعيمها حتى ظهرت منابت الشعر الزرقاء، وكانت يداه نظيفتان جداً وأظافره مقصوصة بعناية شديدة. وكانت يدندن في سره بينما أصابع يده اليمنى منهمكة في تقليب قطعة نقود معدنية صغيرة. كان يحدق مراقباً الشارع عن طريق باب المتجر، وكان مستمراً في دندنته حين سمع وقع أقدام الحشد المقترب، فازدادت سرعة يده في تقليب قطعة النقود، ثم توقفت تماماً عندما سد «كينو» بجسمه فتحة الباب. فقال بلهفة:

- صباح الخير يا صديقي.. تفضل.. أي خدمة؟

* * *

تأمل «كينو» عتمة المكان، ووجد صعوبة في النظر إلى داخل المتجر الصغير، بعد تعرض عينيه لضوء الشمس الشديد الذي يغمر الشارع. إلا أن عيني التاجر كانتا ثابتتان ولا ترمشان، وكأنهما عيني صقر. وخلف المكتب - في سرية تامة - كانت أصابع يده مستمرة في تقليب قطعة النقود.

قال «كينو»:

معي لؤلؤة.

فشخر «جوان توماس» الذي كان يقف إلى جانبه، معبراً عن استيائه من تعبير أخيه الذي كان أضعف مما يقتضيه الحال.

★★★

حول باب المتجر كان الجيران المحتشدون يلتفون ويتأملون، بينما تعلق طابور من الأطفال بقضبان النافذة، وزحف عدد آخر منهم واندس بين الأرجل محاولين الظفر ولو بنظرة واحدة.

قال التاجر:

- تقول إن لديك لؤلؤة.. حسناً.. دعنا نرها.

ثم استطرد:

- أحياناً يأتينا البعض ومعه الكثير من اللآلئ.. دعنا نرى لؤلؤتك على أي حال، لنثمّنها ونعطيك أفضل سعر لها.

وراحت أصابع يده المختفية وراء المكتب تقلب في عصبية قطعة النقود الصغيرة. وبطريقة غريزية حاول «كينو» أن يسيل لعاب التاجر ويثير فضوله، فراح ببطء وبأداء تمثيلي رائع يخرج محفظته الجلدية من داخل جيب القميص، ثم ببطء أكثر أخرج منها قطعة جلد الغزال

الناعمة، وبدأ يفضها ليخرج اللؤلؤة، ثم يدحرجها على الصينية المبطنة بالقطيفة السوداء، ناظراً بسرعة إلى وجه التاجر الذي لم تظهر عليه أي علامة انفعال أو تأثر، ولكن يده المختفية وراء المكتب فقدت فجأة مهارتها، فتعثرت قطعة النقود فوق أصابعه، وانزلقت في حجره، فأخرج يده من مخبئها، ولمس اللؤلؤة الضخمة بسبابته لمسة خفيفة ودحرجها فوق الصينية، ثم التقطها بطرف سبابته وإبهامه، وقربها من عينيه، وراح يدورها في الهواء وينظر إليها.

☆☆☆

في تلك اللحظات كان «كينو» يكتم أنفاسه، كما كان الجيران يكتمون أنفاسهم، في حين كان يسرى همس بينهم: «إنه يفحصها، لم يذكر سعراً حتى الآن، لم يصلوا إلى السعر».

☆☆☆

تحولت يد التاجر إلى كيان وشخصية مستقلة بذاتها، فرفضت اللؤلؤة ودحرجتها فوق الصينية مرة أخرى، فيما راح إصبع السبابة يضربها في إهمال ولا مبالاة. ثم ظهرت على وجه التاجر أخيراً ابتسامة حزينة فيها شيء من السخرية والازدراء وقال:

- أنا آسف يا صديقي.

ورفع كتفيه قليلاً في إشارة إلى أن سوء الحظ لا دخل له فيه.

فقال «كينو»:

- إنها لؤلؤة عظيمة.

فضرب التاجر اللؤلؤة بإصبعه مرة أخرى بشدة، لدرجة أنها قفزت إلى الجانب الآخر للصينية، ثم ارتدت في نعومة. وقال:

- هل سمعت يا صديقي عن الذهب المزيف؟.. هذه اللؤلؤة مثل الذهب المزيف.. كما إن حجمها ضخم.. من الذي سيشتريها؟.. لا يوجد سوق لمثل هذه الأشياء، فهي ليست إلا تحفة نادرة.. أنا آسف.. تعتقد يا صديقي أنها ذات قيمة عظيمة، ولكنها مع الأسف ليست إلا تحفة نادرة.

وهنا ظهر القلق والارتياب على وجه «كينو» الذي صاح قائلاً:

- ماذا تقول؟.. إنها أعظم لؤلؤة في العالم، ولم ير مثلها من قبل.

فقال التاجر:

- على العكس.. إن حجمها أكبر من اللازم، وليست جيدة الصقل، لكن كتحفة فهي لا شك ملفتة للنظر، ويمكن أن يكون لها منفعة، فبعض المتاحف ربما تأخذها لتعرضها ضمن مجموعاتها من الأصداف والمحار.. أستطيع على أي حال أن أعطيك ثمناً لها.. لنقل: ألف بيزو.

فاكفهر وجه «كينو» وشعر بالخطر، فقال في انفعال:

- ألف بيزو!.. إنها تساوي خمسين ألف بيزو على الأقل، وأنت تعرف ذلك، وتريد أن تخدعني.

وفي تلك اللحظة وصلت إلى أذني التاجر همهمة تذمر واحتجاج انتشرت بين حشد الجيران المتزاحم حول «كينو» بعد سماعهم السعر الذي حدده التاجر، فشعر برعشة خفيفة من الخوف، ولذلك قال:

- لا تلمني يا صديقي، فأنا مجرد مثمّن، اسأل التجار الآخرين، اذهب واعرض عليهم لؤلؤتك أو الأفضل.. والتفت ونادى صبيه، وقال له: اذهب يا ولد إلى أي تاجر من زملائنا، ثم اذهب إلى تاجر آخر، وثالث.. وقل لهم إن سيدي يسعده أن يراكم ولا تخبرهم بالسبب. ثم التفت إلى «كينو» وقال سندعهم يأتون إلى هنا دون أن

تتحرك، وستسمع منهم، وتتأكد أنه لا يوجد أي تواطؤ أو تآمر. ثم اتجهت يده اليمنى إلى حيث كانت مختبئة خلف المكتب، وأخرج قطعة النقود المعدنية من جيبه وأخذ يقلبها بين أصابعه.

★★★

وراح الجيران الذين كانوا يتوقعون شيئاً كهذا يهمسون لبعضهم البعض، فاللؤلؤة كانت فعلاً كبيرة جداً، ولونها غريب، ولهذا كانوا منذ رأوها أول مرة يشكون في أمرها، وفي الوقت نفسه كانوا يرون أن مبلغ الألف بيزو لا يجب رفضه، إذ يمثل ثروة بالنسبة لرجل فقير، وإذا أخذ «كينو» هذا المبلغ فسيكون هو الرابح، لأنه بالأمس فقط لم يكن يملك منه بيزو واحد.

★★★

إلا أن «كينو» كان قد ازداد صلابة وتحجراً، وكان يشعر بزحف الكارثة نحوه، وتحليق النسور من حوله، ويشعر بالشر الذي يقترب منه، ويعجز عن مقاومته. وفجأة رنت في أذنيه موسيقا العدو، في حين كانت اللؤلؤة تلمع فوق الصينية، لدرجة أن التاجر لم يستطع رفع بصره عنها.

★★★

عندما أقبل تجار اللؤلؤ الثلاثة، أفسح لهم حشد الجيران ليمروا إلى داخل المتجر، والتزموا بالصمت حتى لا تفوتهم كلمة ينطقون بها أو حتى مجرد إشارة. وكان «كينو» يراقب ما يحدث حوله في صمت، وهو يشعر ببعض الألم في ظهره، ولكنه ما إن التفت ونظر إلى «جوانا»، حتى زال ألمه، وشعر أن قواه قد تجددت.



لم يتبادل التجار الثلاثة النظر إلى بعضهم البعض، كما لم ينظروا إلى اللؤلؤة. وبعد صمت قليل قال التاجر الجالس وراء المكتب:

- لقد حددت سعراً لهذه اللؤلؤة، وصاحبها الموجود هنا معنا لا يراه مناسباً، فإذا تكرمتم افحصوا هذا الشيء، وحددوا لنا سعره.

ثم قال موجهاً الكلام لـ «كينو»:

- لاحظ أنني لم أذكر لهم السعر الذي حددته.

★ ★ ★

أمسك أحد التجار الثلاثة - وكان نحيفاً ويبدو لزجاً - اللؤلؤة في يده ودوّرها بسرعة بين سبابته وإبهامه، ثم ألقاها بإهمال في الصينية وقال بجفاء:

- لا تدخلوني في هذه القضية، فأنا لن أقدم سعراً على أي حال، لأنني لن أشتريها، فهذه ليست لؤلؤة، وإنما هي شيء غريب. ثم زم شفتيه الرفيعتين وحول نظره عنها.

★ ★ ★

التاجر الآخر، والذي كان قليل الحجم، وذا صوت خافت وخجول، أمسك اللؤلؤة وأخذ يفحصها بدقة واهتمام، ثم أخرج عدسة من جيبه وعاينها بها ثم قال مبتسماً:

- اللآلئ الأفضل تكون مصنوعة من زجاج براق، أما هذه فمصنوعة من مادة طباشيرية ناعمة، وستفقد لونها وبريقها وتموت بعد عدة شهور.. انظر.. ومد يده بالعدسة لكينو مبيناً له كيف يستخدمها.

ولأن «كينو» لم يسبق له أن رأى سطح اللؤلؤة مكبراً، فقد أذهله سطحها البديع، وأصابه بصدمة شديدة.



التاجر الثالث أخذ اللؤلؤة من يد «كينو»، ثم قال:

- أحد زبائني يحب هذه الأشياء الغريبة، سأدفع لك خمسمئة بيزو، وربما أوفق في بيعها له بستمئة.

فمد «كينو» يده وخطف اللؤلؤة منه، ولفها في قطعة جلد الغزال، ودسها في جيب قميصه.

★★★

قال التاجر الجالس على المكتب:

- أعرف أنني رجل مغفل ومتهور، لكن لن أتراجع عن السعر الذي حددته، وما زلت أعرض عليك يا صديقي الألف بيزو، فما رأيك؟

فصاح «كينو» بوحشية:

- أنا أتعرض لغش واحتيال، لؤلؤتي ليست للبيع هنا، سأذهب ربما إلى العاصمة نفسها لأبيعها.

★★★

تبادل التجار الثلاثة مع التاجر الأول النظر إلى بعضهم البعض، بعد أن أدركوا أنهم قد بالغوا في تمثيل دورهم، أنهم حتماً سيتعرضون للوم وتوبيخ التاجر الكبير الذي يعملون لديه، بسبب فشل مهمتهم، لذلك سارع التاجر صاحب المتجر إلى القول:

- سأزيد السعر الذي حددته خمسمئة بيزو أخرى. فما رأيك؟

ولكن «كينو»، في تلك اللحظة كان يشق طريقه وسط الزحام، مغادراً المتجر وهو يندفع بخطوات واسعة، ودمه يغلي ويفور، ويكاد يطفر من أذنيه. وكانت «جوانا» تهرول خلفه.



عندما حل المساء، جلس الجيران في أكواخهم، يتناولون فطائر الذرة مع اللوبيا المسلوقة، وهم يتناقشون في الموضوع المثير الذي كانوا فيه منذ الصباح.

كانوا في حيرة من أمرهم، فاللؤلؤة على الرغم من أنها كانت تبدو رائعة إلا أنهم لم يشاهدوا مثلها من قبل، ومؤكد أن التجار يعرفون قيمتها أكثر منهم. وتبادلوا الحديث قائلين:

- أولئك التجار الثلاثة الذين استدعاهم صاحب المتجر، لم يتناقشوا في قيمة اللؤلؤة، كل واحد منهم كان يعرف أن قيمتها ليست كبيرة.

- ولكن ألم يرتبوا للأمر فيما بينهم؟.

- إذا كان ذلك، فمعناه أنهم كانوا يغشوننا طوال حياتنا.

- ربما كان من الأفضل أن يقبل «كينو» مبلغ الألف وخمسمئة بيزو، فهو مبلغ كبير على كل حال، ولم يره «كينو» أبداً في حياته. إنه مغفل كبير!

- وإذا فرضنا أنه سيذهب فعلاً إلى العاصمة، ولم يجد أحداً يشتري منه اللؤلؤة بالسعر الذي يريده، فعندها لن يستطيع أن يعيش هنا.

وقال بعض الجيران الجبناء بطبيعتهم:

- لقد تحدى «كينو» التجار، ولذلك ليس من المنتظر أن يتعاملوا معه بعد الآن، لقد ذبح نفسه بنفسه ودمر حياته.

ثم قال آخرون كانوا فخورين بما فعله «كينو»:

- «كينو» رجل شجاع وقوي، وهو على حق، وربما نستفيد كلنا من شجاعته تلك.



في كوخه، جلس «كينو» مقرفصاً فوق حصيرة النوم، شاعراً بالهم بعد أن دفن اللؤلؤة تحت حجر بجوار الكانون. وسرح بنظرة في الرسوم التي تزين الحصيرة، حتى تراقصت في عينيه. لقد خسر عالماً، ولم يكسب عالماً بديلاً. كان خائفاً، إذ لم يسبق له في حياته أن ذهب أبعد من منطقة الأكواخ، كان فزعاً من الناس الأغراب الذين لا يعرف شكلهم، ومن الأماكن الغريبة، ومن وحش الغربة الفظيع الذي يسمونه العاصمة، والتي تقع فيما وراء البحر، والطريق إليها يمر عبر سلسلة من الجبال لمسافة تتجاوز الألف ميل، وكل ميل منها غريب ورهيب. ولكن كان عليه بعد أن فقد عالمه القديم أن يقتحم عالماً جديداً بكل ما أوتى من قوة. فحلم مستقبله كان حقيقياً ومن الصعب تدميره، وعندما قال سأذهب إلى العاصمة، فإنه كان قد خلق من العدم شيئاً حقيقياً.. فالتصميم على الذهاب بعد التصريح به يكون مثل قطع نصف مسافة الطريق.

★★★

كانت «جوانا» تراقبه وهو يدفن اللؤلؤة، حين كانت ترضع «كويوتيتو»، ثم نهضت من مكانها لتعد طعام العشاء. وعندما جاء جوان توماس، قرفص إلى جانب أخيه، وظل صامتاً، إلى أن بادر «كينو» بالقول:

- وماذا أفعل غير ذلك؟.. إنهم غشاشون!

فهز «جوان توماس»، الذي كان أكبر في السن من «كينو»، ويمثل دائماً مصدر الحكمة والنصيحة بالنسبة له، رأسه بوقار ثم قال:

من الصعب أن نعرف، كل ما نعرفه أننا نخدع منذ مولدنا وحتى اللحظة التي يدفع فيها ثمناً باهظاً لأكفاننا ونعوشنا التي نوضع فيها حين نموت، غير أننا كما ترى نظل أحياء. المشكلة أنك لم تتحد فقط تجار اللؤلؤ، ولكنك تحديت كل نظامنا الاجتماعي وطريقتنا في الحياة المستقرة منذ مئات السنين، ولهذا أنا خائف عليك.

فتساءل «كينو»:

- وما الذي يجب أن نخشاه أكثر من الجوع والفقر الذي نحن فيه؟

فهز «جوان توماس» رأسه ببطء ثم قال:

- هذا صحيح، وهذا ما نخشاه جميعاً.. ولكن إذا كنت على صواب، وكانت اللؤلؤة ذات قيمة كبيرة فعلاً، فهل تعتقد أن اللعبة قد انتهت؟

- ماذا تعني؟

- لا أعرف، ولكني خائف عليك، فأنت تصر على الذهاب إلى مكان بعيد وغريب. ولا تعرف حتى الطريق إليه.

- سأذهب على كل حال.. وفوراً.

- نعم، هذا ما يجب أن تفعله.. وكلما أسرعت كان أفضل، ولكني أشك أنك ستجد في العاصمة أي اختلاف عن هنا، بل إن هنا لديك الأصدقاء.. والجيران.. وأنا.. أخوك. بينما لن يكون لديك هناك أحد يحميك أو يرشدك!

- وماذا أفعل إذاً؟.. هنا اعتداء وظلم صارخ.. ابني يجب أن يحصل على فرصة أفضل في الحياة، وهذا ما يهدفون إلى تحطيمه، ولسوف يحميني الأصدقاء إلى أن أخرج من هنا.

- سيحمونك بالفعل، ولكن بشرط ألا يتعرضوا للخطر.

ثم نهض وهو يقول:

- اذهب في رعاية الله.

ورد عليه «كينو»، مخرجاً الكلمات من فمه بصعوبة:

- وأنت أيضاً.. اذهب في رعاية الله.

★★★

وبعد أن انصرف «جوان توماس»، جلس «كينو» على حصيرة النوم يفكر، وقد هدّه التعب واجتاحه شيء من اليأس، حيث بدت كل الطرق مسدودة في وجهه. وداخل رأسه كانت ترن موسيقا العدو السوداء في الوقت الذي كانت فيه كل حواسه مستيقظة، وارتد عقله لبدائيته، إلى حيث يمتزج ويتفاعل مع كل الأشياء المحيطة به وهي ميزة يتحلى بها هو وكل أهله ساعة الخطر. فكان يسمع بوضوح كل أصوات الليل الخافتة من حوله، ويشم رائحة اليود النفاذة المتصاعدة من الأعشاب والطحالب التي تطردها أمواج البحر على الشاطئ. وكان الوهج القليل المنبعث من الأغصان المشتعلة بالكانون يجعل الرسومات المنقوشة على حصيرة النوم تتراقص وتتقافز أمام عينيه اللتين كانتا مفتوحتين على اتساعهما. وكانت «جوانا» تراقبه بقلق. ولكن لأنها كانت تعرفه جيداً، فكانت تعرف أن أفضل مساعدة يمكن أن تقدمها له، أن تظل قريبة منه وملتزمة الصمت. وعلى الرغم من أنها كانت مثله، ترن في أذنيها موسيقا الشر، فقد راحت تدندن بصوت خافت لحن أغنية العائلة، التي تبعث الأمان والدفء والتمام الشمل، وحضنت «كويوتيتو» بين ذراعيها بينما

استمرت في الغناء والدندنة بصوت شجاع يتحدى موسيقا الشر السوداء.

☆☆☆

لم يتحرك «كينو»، ولم يطلب الطعام كعادته، إذ شعر بأن هناك شيء شرير متحفز يترقبه خارج الكوخ، شيء زاحف في ظلام الليل ينتظر خروجه من الكوخ، بل يستدعيه ويتحداه. فمد يده إلى صدره ولمس سكينه التي يعلقها في رقبته، ثم نهض واتجه نحو باب الكوخ. وبلا شعور مدت «جوانا» يدها لتوقفه، وفمها مفتوح من الرعب، بينما ظل «كينو» لحظات واقفاً بباب الكوخ يحدق في الظلام، ثم اندفع خارجاً. وسمعت «جوانا» وهي في مكانها صوت انقضاض خفيف، وصوت اشتباك ممزوج بأنفاس لاهثة ولكمات. فتجمدت من الرعب بينما كانت شفتاها منحسرتين وتكشفان عن أسنانها وكأنها قطة متحفزة للهجوم، ثم سيطرت على خوفها ووضعت «كويوتيتو» على الأرض وأمسكت بحجر في يدها، واندفعت إلى خارج الكوخ. ولكن كل شيء كان قد انتهى. «فكينو» كان ملقى على الأرض، يجاهد محاولاً النهوض، وحوله لم يكن هناك غير الظلال السوداء، وصوت ارتطام الأمواج بالشاطئ.. والشر المتربص في كل مكان خارج الكوخ.

☆☆☆

رمت «جوانا» الحجر من يدها، ثم لفت ذراعيها حول «كينو» لتساعده على النهوض وسندته حتى دخلا الكوخ.

كانت الدماء تنزف من رأس «كينو»، وكان هناك جرح طويل وغائر في خده، وكان قميصه ممزقاً، في حين كانت رأسه تتمايل من جانب إلى آخر وهو شبه مغمى عليه.

راحت «جوانا» تمسح الدماء من على وجهه بطرف جونلتها، ثم ناولته إبريق «البولكو» ليشرب منه. وسألته:

- من؟.. من الذي هاجمك؟

فرد عليها:

- لا أعرف.. لم أر شيئاً.

وبينما كان يحدق في الفراغ من حوله، ويشعر بدوارٍ، صاحت:

- يا «كينو».. هذه اللؤلؤة شر.. دعنا ندمرها ونسحقها، أو نلقي بها في البحر لتعود من حيث جاءت، فهي شر.. هي شر يا «كينو».. أتسمعني!

وبينما كانت منفعلة وهي تتكلم، لمعت عينا «كينو» بوحشية، وتشنجت عضلاته، واشتدت عزيمته مرة أخرى، فقال:

- لا.. سأحارب هذا الشيء.. وسأنتصر عليه.. وسوف نحصل على فرصتنا. وضرب الحصيرة التي يجلس فوقها بيده وقال:

- لن يسلبنا أحد مستقبلنا الذي نحلم به.

ثم هدأ قليلاً، ووضع يده برقة على كتفي «جوانا»، وقال:

- صدقيني.. فأنا رجل!

واكتسى وجهه بالدهاء وهو يقول:

- في الصباح سنأخذ قاربنا، وننطلق به عبر البحر، ثم نعبر الجبال إلى العاصمة.. أنا وأنت.. ولن نمكن أحداً أن يخدعنا أو يغشنا، فأنا رجل.

فقالت «جوانا» بصوت مبحوح:

- ولكني خائفة، فأي رجل يمكن أن يموت.. هيا بنا نلقيها في البحر، لنتخلص من شرها.

فرد عليها «كينو» بلهجة عنيفة:

- اسكتي، فأنا رجل.. اسكتي.

فسكتت، بعد أن تبينت في صوته لهجة الأمر الذي يجب أن يطاع.

ثم قال «كينو»:

- هيا بنا ننام قليلاً.. فسنبدأ رحلتنا مع أول ضوء للصباح.. هل أنت خائفة من المجيء معي؟

فقالت:

- لا.

ولمعت عيناه بدفء وحنان، ولمس خدها بيده وهو يقول:

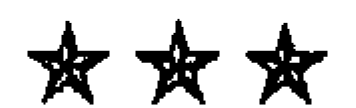
- هيا.. ننام قليلاً.

☆☆☆

قبل أن يصيح أول ديك، بزغ القمر، الذي كان قد تأخر تلك الليلة، وفتح «كينو» عينه في الظلام، بعد أن أيقظته حركة خفيفة بالقرب منه، وراح يفتش بعينيه الظلام من حوله، فرأى «جوانا» في الضوء الخفيف لأشعة القمر النافذة من شقوق جدران الكوخ، وهي تنهض من جانبه وتتسحب في حذر متجهة ناحية الكانون، ثم سمع صوتاً خافتاً عندما أزاحت الحجر الذي بجانب الكانون، ورآها وهي تقف لحظة بجانب صندوق الطفل المعلق، ثم تتسلل كالظل خارجة من الكوخ.

★★★

اشتعل كل كيان «كينو» بالغضب، فنهض وخرج وراءها في صمت، ودون أن تشعر به أخذ يتسحب وراءها وهي تهرول متجهة إلى شاطئ البحر، وعندما لمحته قادماً وراءها انطلقت تجري، فجرى وراءها وقفز فوقها، وأمسك بذراعها المرفوع في الهواء، وانتزع اللؤلؤة من قبضة يدها في اللحظة التي كادت أن تقذف بها في البحر، ثم ضربها على وجهها ورفسها في جنبها بعد أن سقطت على الأرض.



كانت أمواج البحر تتكسر فوق جسدها، فتطفو الجونلة التي ترتديها حولها، ثم تعود لتلتصق بساقيها عندما ينحسر الماء. وكان «كينو» ينظر إليها بغضب مصدراً بأنفاسه اللاهثة صوتاً مثل فحيح الثعبان، في حين كانت هي تحدق في وجهه بعينيها المفتوحتين على اتساعهما والخاليتين من أي خوف، وكأنها نعجة مستسلمة للجزار الذي يتهيأ لذبحها.

كانت تدرك أن فكرة القتل تسيطر عليه، وعلى الرغم من ذلك كانت تتقبل الأمر ببرود ولا تفكر في الاحتجاج أو المقاومة.

***

زال غضب «كينو» بعد لحظات، وحل محله شعور متفاقم بالقرف والاشمئزاز، فاستدار مبتعداً عن «جوانا»، بعد أن تبلدت مشاعره المنفعلة، وسار على الشاطئ، ثم باغتته فجأة حركة اندفاع، فأخرج سكينه بسرعة وغرزها في شيء كالشبح الأسود كان منقضاً عليه، بعدها شعر بنفسه يترنح ويسقط على الأرض، في حين كانت أصابعه مسعورة يعبث بملابسه بحثاً عن اللؤلؤة التي طارت في تلك اللحظة من يده لتستقر خلف حجر صغير على الشاطئ، وراحت تومض وتتلألأ في ضوء الشمس الشاحب.

***

زحزحت «جوانا» نفسها من جانب الماء على الشاطئ، ونهضت على ركبتيها، في حين كانت جونلتها المبلولة تلتصق بجسمها، وكان وجهها وجنبها يؤلمانها ألماً خفيفاً.

لم تكن غاضبة من «كينو»، على الرغم من عنفه معها. سبق أن قال لها: أنا رجل، وهذا لا يعني بالنسبة لها إلا شيئاً محدداً: أنه نصف مجنون ونصف إله.. وأنه مستعد لتحدي الجبل وتحدي البحر. ولكنها - كامرأة - كانت على يقين بأن الجبل سيصمد بينما الرجل هو الذي يتحطم، وأن البحر سيموج ويصطخب في حين أن الرجل هو الذي يغوص فيه ويغرق. ومع ذلك، فهذا التحدي هو الذي يجعله رجلاً.. نصف مجنون ونصف إله. وهي كانت في حاجة إلى الرجل، ولا يمكنها العيش من دونه. وعلى الرغم من أن ما بين «كينو» كرجل وبينها كامرأة، من فروق واختلافات كانت تحيرها وتربكها، إلا أنها كانت تتقبل الأمر الواقع، وتقتنع بأن دورها في الحياة أن تتبعه دون أن تسأل.. وقد تنجح بطبيعتها كامرأة حذرة ومتعقلة وتحكم تصرفاتها غالباً غريزة البقاء القوية لديها، في كبح طبيعة «كينو» الجامحة. وبذلك تنقذه وتنقذ نفسها معه.

لذلك، تحملت الألم، ووقفت على قدميها، ثم غطست كفيها في الأمواج الصغيرة، وغسلت وجهها المكدوم بالمياه المالحة، ثم انطلقت تهرول في أعقاب «كينو».

***

كان سرب من السحب الصغيرة المتلاصقة الشبيهة بأسماك الريخة يتحرك في السماء قادماً من ناحية الجنوب. كان القمر الشاحب يغطس ثم يطفو وسط جدائل السحب التي تغطي السماء. ولهذا كانت «جوانا» تسير في ظلام حالك لحظات، ثم في ضياء

خفيف لحظات أخرى، وكان ظهرها محنياً من شدة الألم، ورأسها منتكس. كانت تعبر خط الأشجار الصغيرة التي تفصل منطقة الأكواخ عن البحر، حين بزغ القمر من بين السحاب، فجذب نظرها بريق اللؤلؤة خلف صخرة صغيرة على الشاطئ، فهبطت على ركبتيها التقطتها، وظلت راكعة تفكر في الرجوع إلى الشاطئ والتخلص من اللؤلؤة وإنهاء الأمر. وبينما كانت مستغرقة في تفكيرها، بزغ القمر مرة أخرى، ونور المكان، فلمحت شبحين أسودين مطروحين على الأرض، فقفزت نحوهما فرأت «كينو» ممدداً على الأرض، وإلى جانبه شخص غريب يتدفق من حلقه سائل داكن يلمع.

★ ★ ★

حرك «كينو» ذراعيه وساقيه ببطء شديد كأنه حشرة مسحوقة، وكانت تصدر من فمه همهمة غليظة. وهنا أدركت «جوانا» أن حياتهما القديمة قد انتهت وذهبت إلى الأبد. فالرجل الميت، المطروح على الأرض، وبجانبه سكين «كينو» الملطخ بالدماء لم يترك لديها أي شك في ذلك.

كانت طوال الوقت تحاول إنقاذ شيء من السلام القديم، ومن الزمن القديم.. قبل أن يعثروا على اللؤلؤة. ولكن هذا الزمن كان قد ولّى الآن، ومن المستحيل إرجاعه. ولذلك تنازلت عن تفكيرها في هذا الماضي، وبدأت من فورها تفكر فيما ستفعله لإنقاذ «كينو» وإنقاذ حياتهما معاً.



وفي الحال ذهب عنهما الألم، فتحركت بسرعة وجرت الجسد المرمى وأخفته بين الأشجار، ثم رجعت إلى «كينو» وراحت تمسح وجهه بطرف جونلتها المبلولة، فبدأ يعود إليه وعيه، وتأوه قائلاً:

- أخذوا اللؤلؤة.. انتهى كل شيء.. ضاعت اللؤلؤة.

فراحت تهدئ من روعه كما لو كان طفلاً مريضاً يتأوه، وقالت:

- اسكت.. ها هي لؤلؤتك.. وجدتها بين الصخور.. هل تسمع؟.. هاهي اللؤلؤة.. هل تفهم؟.. أنت قتلت رجلاً.. ويجب علينا أن نهرب من هنا قبل أن يبحثوا عنا.. هل تفهم؟.. ينبغي أن نهرب قبل طلوع النهار.

فقال بصعوبة:

- لقد باغتني بالهجوم.. فقتلته دفاعاً عن نفسي.

فقالت:

- ألا تذكر ما حدث بالأمس.. مع التجار.. هل كنت تعتقد بأن ذلك لم يكن متوقعاً بعد مجادلتك لهم ورفضك لأسعارهم؟

فسحب «كينو» نفساً عميقاً ليقاوم ضعفه وقال:

- أنت على حق.. لكني لن استسلم.

واشتد عزمه، وعاد إليه إحساسه برجولته فقال:

- اذهبي إلى كوخنا، وهاتي «كويوتيتو»، وكل ما لدنيا من دقيق، حتى أسحب القارب من على الشاطئ، وأنزله في الماء، ثم نذهب.

وأخذ سكينه، وسار متعثراً على الشاطئ حتى وصل إلى القارب. فوجده مدمراً، فاجتاحه غضب شديد.. لكن الغضب زوّده بالقوة.

* * *

في تلك اللحظات، كان الظلام يخيم على «كينو» وأسرته. وملأت موسيقا الشر الليل من حولهم، فكانت تحلق فوق أشجار المانجروف على الشاطئ، وتمتزج بصوت الأمواج. فتدمير القارب الذي ورثه عن أبيه وعن جده، والذي غلف - على مدى سنوات - بطبقات فوق طبقات من المادة شبه الصدفية الصلبة، هو الشر بعينه.. بل هو أشر من كل شر، يهون معه قتل الرجل، فالقارب الذي يتعرض لفعل التدمير لا يستطيع حماية نفسه كالإنسان، وليس له ولد يحميه، كما إن جرح القارب لا يلتئم أبداً.

* * *

امتزج غضب «كينو» بالأسى، لكنه، وبعد أن دمروا له قاربه، ازداد قوة وصلابة، وأصبح غير قابل للانكسار. وبدءاً من تلك اللحظة تحول إلى حيوان متوحش قادر على الاختباء وعلى الهجوم والانقضاض دفاعاً عن حياته ووجوده هو وأفراد فصيلته. فرجع إلى الكوخ غير مبالٍ بآلام رأسه، ولم يخطر بباله أن يأخذ قارباً آخر من القوارب المصطفة على الشاطئ بدلاً من قاربه المدمر، لم يخطر ذلك بباله، مثلما لم يخطر أو كان يتصور أن يقوم أحد بتدمير قارب.



بدأت الديكة بالصياح، وأصبح الفجر وشيكاً، وتسرب دخان النيران الأولى من بين شقوق جدران الأكواخ، وانتشرت في الجو أولى روائح فطائر الذرة الصباحية، ورفرفت في الجو الطيور التي استيقظت من نومها، وبدأ القمر الشاحب يفقد ضياءه، وتكاثفت السحب وتزاحمت في اتجاه الجنوب، وهبت فوق مصب النهر رياح نشطة لها رائحة العاصفة.

★★★

كان «كينو» يشعر وهو يهرول نحو الكوخ بموجة من الحيوية والنشاط، ولم يكن مرتبكاً أو مضطرباً، فليس هناك سوى شيء واحد عليه أن يفعله. لذلك اتجهت يده أولاً نحو جيب قميصه حيث اللؤلؤة، ثم إلى صدره حيث سكينة المعلق كالعقد فوقه. وأثناء اقترابه من منطقة الأكواخ، شاهد توهجاً ضعيفاً، أعقبه لهيب عالي، ثم صرح من النيران المتأججة. فانطلق يعدو بعد أن أدرك أن الذي يشتعل هو كوخه، وأن النيران يمكن أن تمتد إلى الأكواخ الأخرى وتحرقها في لحظات.

وبينما كان يقترب من الكوخ كانت «جوانا» تهرول نحوه وهي تلهث حاملة بين ذراعيها. «كويوتيتو» الذي كان يصرخ بفزع. كانت عيناها مفتوحتين على اتساعهما من الرعب، فأدرك «كينو»- دون أن يسألها - أن كوخها قد اشتعل وأتت عليه النيران.

قالت «جوانا»:

- بعد أن أخذت «كويوتيتو»، وابتعدت قليلاً عن الكوخ، التفت فرأيتهم يحطمون الكوخ ويشعلون النار فيه.

فاستولى الخوف فجأة على «كينو»، وتذكر الرجل الذي يرقد ميتاً بين الأشجار. فجذب «جوانا» من ذراعها ليختبئ وراء احد الأكواخ حتى لا يكشفها الضوء الذي انتشر في المكان بسبب النيران المشتعلة. وفكر لحظة، ودبر الأمر بسرعة، وتسلل بين الظلال ساحباً «جوانا» خلفه حتى وصل إلى كوخ شقيقه «جوان توماس».

☆☆☆

كوخ «جوان توماس»، كان مثل كل أكواخ الصيادين: ينفذ الضوء والهواء من بين شقوق جدرانه المصنوعة من الأغصان. ولذلك شاهد «كينو» و «جوانا» وهما بداخله ألسنة النيران المتصاعدة، كما شاهدا سقف كوخهما وهو يسقط، وشاهدا كذلك انطفاء النار المشعلة بالكوخ، بعد أن أتت عليه، بسرعة، مثلما ينطفئ غصن صغير مشتعل. ووصل إلى سمعهما صراخ الأطفال وصياح الجيران الذين كانوا يظنون أنهما احترقا بداخل الكوخ.

واستطاع «كينو» و «جوانا» أن يميزا وسط هذا الصراخ، صراخ أبولونيا زوجة «جوان توماس»، والذي كان حاداً ومدوياً.

☆☆☆

انتبهت أبولونيا وهي تصرخ وتندب إلى أنها تضع فوق ملابسها التي ترتديها شالاً بالياً ومهترئاً، فاندفعت عائدة إلى كوخها لتستبدله بآخر جديد يتناسب مع فداحة المأساة، ودرجة قرابتها لـ «كينو» و «جوانا». وبينما كانت تفتش في صندوق الملابس، سمعت صوت «كينو» الخافت:

- لا تصرخي يا أبولونيا.. نحن بخير.. لم نصب بأذى.

فالتفتت مفزوعة وقالت:

- كيف وصلتما إلى هنا؟!

فقال «كينو»:

- لا تسألي كثيراً، واذهبي إلى أخي، وأخبريه بوجودنا هنا، دون أن يعرف أحد آخر.

فانصرفت وهي صامتة، وبعد لحظات رجع «جوان توماس»، فأشعل شمعة وتوجه إلى الركن الذي يقبع فيه «كينو» و «جوانا»، ثم قال:

- راقبي الباب يا أبولونيا، ولا تسمحي لأحد بالدخول.

ثم نظر إلى «كينو» وقال:

- والآن يا أخي؟

فقال «كينو»:

- لقد هاجمني أحدهم في الظلام، وأثناء اشتباكي معه قتلته.

فسارع «جوان توماس» إلى السؤال:

- ومن الذي هاجمك؟

ردّ «كينو»:

- لا أعرف.. لم أره في الظلام.

فقال «جوان توماس»:

- إنها اللؤلؤة.. بداخلها شيطان.. يجب أن تبيعها لتتجنب ما قد يصيبك بسببها من متاعب وشرور.. ربما ما زال بإمكانك أن تبيعها، فلا تضيع الفرصة واشتري لنفسك السلام.

فقال «كينو»:

- أي سلام.. إن قاربي على الشاطئ دمروه.. والكوخ أحرقوه.. وبين الأشجار رجل مقتول.. وحتى الهرب قطع بيننا وبينه.. ويجب أن تخبئنا.

ونظر في عيني أخيه، فلمح فيها القلق والتردد، فسارع إلى القول، قبل أن يفكر في الرفض.

- فقط حتى يمر يوم واحد.. بعده سنرحل.

فقال «جوان توماس»:

- سأحميكم.

فقال «كينو»:

- لا أريد أن أجلب لكم المتاعب أو المخاطر.. فأنا الآن قد أصبحت مثل الجذام.. سنذهب الليلة، وبذلك تكونون في أمان.

فقال «جوان توماس»:

- سأحميكم بكل تأكيد يا أخي.

ثم نادى:

- يا أبولونيا.. أغلقي الباب.. ولا تهمسي لأحد بأنهم هنا.

جلس «كينو» و «جوانا» طوال اليوم صامتين، ومن خلال شقوق جدران كوخ «جوان توماس» كانا يسمعان الجيران وهم يتحدثون عنهما بأسى، بعد أن فتشوا رماد الكوخ المحترق بحثاً عن بقايا عظامهما، ولم يجدوها، فتأكد لديهم أن النيران التهمتها، وكان هؤلاء الجيران قد أحسوا بالصدمة التي هزت عقولهم عندما عرفوا أن قاربهما أيضاً قد تحطم.

وخرج «جوان توماس»، ودس نفسه بين الجيران ليحاول أن يزيل شكوكهم في نجاة «كينو» و «جوانا»، ويضلل أفكارهم بأفكار من صنع خياله، فقال لأحدهم:

- أعتقد أنهما اتجها ناحية الجنوب متخذين طريق الساحل، ليهربا بالشر الذي معهما.

وقال لآخر:

- «كينو» لا يمكن أن يترك البحر أبداً، ربما أخذ قارباً آخراً، وانطلق به.

ثم قال لثالث:

- لقد مرضت أبولونيا المسكينة من البكاء والحزن عليهما.

★★★

كانت الرياح تعصف بالخليج، وتزأر بين الأكواخ، لدرجة أنه لم يكن هناك، فوق الماء، قارب واحد آمن. فاستغل «جوان توماس» ذلك ليؤكد وسط الجيران:

لقد ضاع «كينو».. إذا كان قد ذهب إلى البحر.. فلا بد أنه قد غرق الآن.

كان يتجول كثيراً بين الجيران، حتى يتأكد من عدم اكتشافهم لاختبائهما في كوخه، ولكي لا يرتابوا في أمره، أو يشكوا في كلامه معهم، كان في كل جولة يجولها بينهم يعود وفي يده شيء استعاره منهم. فمرة يعود ومعه سلة صغيرة مليئة بالذرة الحمراء، ومرة أخرى يعود بقصعة مليئة بالأرز، أو إناء ممتلئ بالفلفل، أو كتلة من الملح، وفي جولته الأخيرة جلب من أحدهم

سكيناً كبيرة وثقيلة تشبه الفأس الصغير، مما يستخدمه الصيادون كأداة من أدوات العمل والصيد، وكسلاح في الوقت نفسه. ما إن رآها «كينو» حتى لمعت عيناه بالبريق، وراح يتحسس نصلها بيده مختبراً حدته.

★★★

استمرت الرياح في عصفها، وتلون سطح مياه الخليج بلون الزبد الأبيض الذي تكون بفعل اصطخاب الأمواج وتلاطمها. وتمايلت أشجار «المانجروف» تحت وطأة الرياح المزمجرة. وتصاعدت الرمال الناعمة من فوق سطح الأرض، وتعلقت في الجو مكونة خيمة كبيرة خانقة فوق البحر ومنطقة الأكواخ. واختفت السحب من السماء بعد أن ساقتها الرياح بعيداً.

★★★

عندما اقترب المساء، تحدث «جوان توماس» مع أخيه طويلاً، بادئاً هذا الحديث بالتساؤل:

- إلى أين ستذهب؟

فقال «كينو»:

- إلى الشمال، فقد سمعت أن هناك مدناً في الشمال.

فرد «جوان توماس»:

- تجنب الشاطئ، فقد سمعت أنهم كلفوا جماعةً ليفتشوه ويقتفوا أثرك فيه، هذا فضلاً عن بحثهم عنك في المدينة.. هل ما زالت اللؤلؤة معك؟

فقال «كينو»:

- نعم، معي.. وسأظل محتفظاً بها.. ربما كان يجب أن أقدمها منحة للفقراء والمحتاجين في «لاباز».. ولكن الآن وبعد ما حدث.. فهي نحسي الخاص وحياتي، فإذا تنازلت عنها أكون كمن يتنازل عن حياته. وكانت نظرات عينيه جامدة ومريرة.

★★★

انخرط الطفل «كويوتيتو» في الأنين والبكاء، وراحت «جوانا» تمتم ببعض تعاويذها السحرية. بينما واصل «جوان توماس» حديثة قائلاً:

- الرياح الليلة على ما يرام.. لن تترك آثاراً لأقدامكما يمكن أن يستدلوا منها عليكما.

★★★

قبل مغادرة الكوخ، حملت «جوانا» طفلها «كويوتيتو» على ظهرها وغطته بطرف شالها، فنام من فوره، وقد أمالت رأسه، والتصق خده بكتفها وأسفل رقبتها بحيث كانت تشعر بأنفاسه. ثم غطت أنفها بالطرف الآخر للشال لتتحاشى تأثير هواء الليل البارد والمؤذي.

ثم عانق «جوان توماس» أخيه، وقبله مرتين، ثم قال:

- اذهب في رعاية الله.

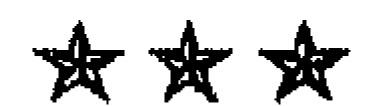
وكانت هذه الكلمات شديدة الوطأة، ولها وقع الموت على كل من «كينو» و «جوان توماس»، الذي قال أخيراً:

- ألن تتخلى عن اللؤلؤة؟

فرد «كينو»:

- لقد صارت روحي.. وإذا تخليت عنها، فأنا أتخلى عن روحي. اذهب أنت أيضاً في رعاية الله.

وقبل أن يبزغ القمر المختفي بين السحاب في سماء «لاباز»، غادر هو و «جوانا» الكوخ في صمت وهدوء. ثم احتواهما ظلام الليل.



لملم «كينو» و «جوانا» أطراف ملابسهما حولهما بإحكام، وغطى كلا منهما أنفه جيداً، ليقاوما الرياح التي كانت تهب بعنف ووحشية، وتضربهما في وجهيهما بقطع الأغصان الصغيرة والحصى وذرات الرمال التي أثارتها من فوق الأرض.

وبدأا مسيرهما الصعب، في مواجهة عالم المجهول.

☆☆☆

كانت السماء خالية من السحب بعد أن كنستها الرياح وزحزحتها بعيداً.

في حين كانت النجوم تومض في وهن. وفي الظلام كان «كينو» و «جوانا» يسيران بحرص وحذر شديدين، بعد أن تجاوزا منطقة الأكواخ، وتجنبا المرور بوسط المدينة؛ حتى لا يراهما شخص ربما يكون مستلق في مدخل أحد البيوت هرباً من الحر بداخلها. ثم اتجها نحو الشمال مسترشدين بالنجوم، وواصلا مسيرهما على طريق رملي وعر يخترق منطقة أدغال، وينتهي عند مدينة «لوريتو» التي كانت العذراء قد اتخذتها محطةً لها.

☆☆☆

أثناء سيرهما، كانت الرمال التي تثيرها الرياح تضربهما في أرجلهما، وهذا ما جعل «كينو» مطمئناً وفرحاً بعض الشيء: فطالما

استمرت الرياح في هبوبها، فلن يتخلف على الأرض أي آثار لأقدامهما. كان «كينو» يسير بخطوات واسعة، وكانت «جوانا» تهرول خلفه حتى لا تتخلف عنه. وعلى الرغم من الخوف من الظلام، ومن الشياطين التي تملأ جنبات الليل، وتتراقص في كل مكان حولهما، إلا أن «كينو» كان يشعر بدفقة من النشاط والحيوية، فقد تحرك في داخله ذلك الشيء القديم، الحي، المحفور في أعماق نفسه، والممتد من تاريخ أسلافه الأوائل.. ذلك الشيء ذو الطبيعة البدائية، الذي يجعله حذراً وفي منتهى اليقظة، كما لو كان وحشاً ضارياً من وحوش الغابة.

***

كانت الرياح مستمرة في زمجرتها وصفيرها المتواصل بين أغصان الأشجار المحيطة بهما، وكانت تدفعهما في ظهريهما أثناء مسيرهما المنتظم والمتصل ساعة بعد ساعة. ثم فجأة بزغ القمر الشاحب عن يمينهما، ومع بزوغه سكنت الرياح، فاستقرت الرمال المتناثرة في الجو على الأرض. وظهر أمامهما واضحاً الطريق الترابي الذي يسيران عليه، وكانت به آثار عجلات عربة (كارو) محفورة بعمق في الأرض.

كان «كينو» يخشى سكون الرياح. فسكونها كان يعني أن آثار أقدامهما ستبدو واضحة على أرض الطريق. لكن ما جعله مطمئناً قليلاً، أنهما كانا قد تجاوزا المدينة بمسافة كبيرة، وربما لا يلاحظ أحد آثارهما، لذلك مشى «كينو» بحذر شديد في مكان الأخدود نفسه الذي حفرته عجلات العربة بالطريق. والتزمت «جوانا» بالسير

على خطواته نفسها، بحيث لو مرت عربة واحدة كبيرة في الصباح فحتماً ستمسح كل آثار أقدامهما.

★★★

واصل «كينو» و «جوانا» سيرهما طوال الليل، دون أن يغيرا من إيقاع خطوهما المنتظم، وحين استيقظ «كويوتيتو»، أسرعت «جوانا» بنقله من على ظهرها ووضعته أمام صدرها، وراحت تهدئه إلى أن نام مرة أخرى.

كان الليل مليئاً بالشرور، فحولهما، في الأدغال، كانت الذئاب تعوي، كما كانت البوم تطلق صرخاتها الحادة المفزعة بين الحين والآخر. وذات مرة - وعلى غير توقع - مر بالقرب منهما حيوان ضخم محطماً الشجيرات الصغيرة بخطواته الثقيلة، مما جعل «كينو» يخرج سكينه بسرعة ويمسكها في يده، استعداداً للدفاع إذا ما هجم عليهما.

★★★

داخل رأس «كينو» كانت ترن موسيقا اللؤلؤة مما جعله يشعر بالانتصار. وكان لحن الأغنية العائلية ينساب ناعماً وهادئاً تحتها، وكأنه الإيقاع المصاحب لها.

ومع ظهور الأضواء الأولى للصباح، راح «كينو» يبحث عن مكان يستريحان ويختبئان فيه أثناء النهار. فوجد بالقرب من الطريق الذي كانا يسيران فيه، مساحة صغيرة من الأرض خالية من الأشجار، يبدو من مظهرها أن بعض الغزلان كانت تتخذه مكاناً لاسترخائها. وعلى الفور، اتجه إليه، وتبعته «جوانا»، ثم

جلست على الأرض لترضع طفلها «كويوتيتو»، في حين رجع «كينو» إلى الطريق، بعد أن كسر غصناً صغيراً من إحدى الأشجار، مسح به بكل دقة وعناية آثار أقدامهما. وعندما انتشر ضوء النهار، سمع صرير عجلات عربة، فجثم بجانب الطريق، ورأى عربة ثقيلة يجرها ثوران كسولان تمشي على الطريق، بعد أن مرت واختفت عن نظره، اتجه إلى الطريق ونظر إلى الأخدود الذي حفرته عجلات العربة، فلاحظ اختفاء آثار أقدامهما منه، فراح مرة أخرى يمسح ما طبعته أقدامه من آثار جديدة، وعاد إلى حيث تجلس «جوانا». وناولته «جوانا» بعضاً من الفطير الذي كانت أبولونيا قد زودتهما به، ثم استلقت ونامت، في حين ظل هو جالساً يحدق في الأرض أمامه، فشاهد طابوراً صغيراً من النمل يتحرك بالقرب منه، فمد رجله ووضعها في طريقه، فما كان من النمل إلا أن تسلق فوقها، وواصل مسيره، وظل «كينو» منشغلاً بمراقبته مدة من الزمن.

☆☆☆

ارتفعت الشمس في السماء، واشتدت حرارتها، فجعلت الجو جافاً وساخناً، إلى درجة أن الأشجار الصغيرة كانت تطقطق وينبعث منها رائحة صمغية زكية.

☆☆☆

استيقظت «جوانا»، بعد أن حصلت على قدر قليل من النوم، وأخذ «كينو» يحذرها من أشياء كانت تلك بالفعل تعرفها، فقال لها مشيراً بيده:

- احترسي من تلك الشجرة هناك.. لا تلمسيها.. لأنك إذا لمستيها، ثم لمست عينيك فستفقدين بصرك. واحذري من الشجرة التي تنزف هناك.. لأنك إذا كسرت غصناً واحداً منها، فستنساب منها دماء حمراء، وهذا فأل سيئ.

فأومأت برأسها مبتسمة، ثم قالت:

- هل تعتقد أنهم سيبحثون عنا ويقتفون آثارنا؟

فرد عليها «كينو»:

- اعتقد أنهم سيحاولون.. وإذا وجدونا، سيأخذون اللؤلؤة.. وآه.. إنهم سيحاولون على أي حال.

فقالت «جوانا»:

- ربما كانوا على حق فيما قالوه.. واللؤلؤة ليست لها قيمة كبيرة.

فدس «كينو» يده في ملابسه وأخرج اللؤلؤة، تاركاً الشمس تداعبها إلى أن توهجت وتلألأت، فقال:

- لا.. إذا لم تكن ذات قيمة كبيرة، فلماذا حاولوا سرقتها؟

فقال «جوانا»:

- هل ما زلت لا تعرف من الذي هاجمك؟.. هل كان أحداً من التجار؟

ردّ «كينو»:

- لا أعرف.. فلم أر أحداً في الظلام.

ثم نظر إلى اللؤلؤة سارحاً بخياله وقال:

- بعد أن نبيعها سيكون لدينا بندقية.

وحدق في السطح اللامع للؤلؤة عساه يرى البندقية، إلا أنه لم ير سوى جثة هامدة متكومة على الأرض، يتدفق من فمها دماء لامعة، فقال بسرعة:

- وسوف نقيم مراسم زواجنا رسمياً في الكنيسة.

ولكنه رأى في سطح اللؤلؤة، «جوانا» بوجهها المجروح تزحف نحو الكوخ في الليل، فقال بعصبية وهياج:

- وسوف يتعلم ابننا القراءة والكتابة في مدرسة.

وهناك، بداخل اللؤلؤة، رأى وجه «كويوتيتو» متورماً ومحموماً.

فدس اللؤلؤة بسرعة داخل ملابسه وأخفاها، بعد أن أصبحت موسيقاها بغيضة ومشؤومة وترن في أذنيه ممتزجة بموسيقا الشر.

☆☆☆

سخنت الشمس بحرارتها الملتهبة الأرض. فتحرك «كينو» و «جوانا» نحو شريط من الظل وفرته بعض الأشجار الصغيرة، وفرت في الوقت ذاته بعض الطيور الرمادية الصغيرة نحو بقعة ظل أخرى. استرخى «كينو» ومد جسمه على الأرض، وغطى عينيه بقبعته، ولف بطانيته حول وجهه ليحميه من الذباب، ثم راح في النوم. وظلت «جوانا» مستيقظة وتجلس في هدوء إلى جانبه، وعلى الرغم من أن فمها كان ما زال متورماً من أثر ضربة «كينو»، إلا أن وجهها كان يبدو منبسطاً، وعندما كان الذباب يطن حولهما ويلتصق بذقنها المجروح، كانت لا تبعده، ولا تأتي بأي حركة، كأنها حجر أصم، أو حارس في نوبة حراسة.

وعنـدما اسـتيقظ «كويوتيتـو»، وضـعته أمامهـا علـى الأرض، وأخذت تراقبه وتتطلع إليه وهو يلوح بيده ويـرفس برجليـه ويبتسم لها، فالتقطت غصناً صغيراً من فوق الأرض، وراحت تداعبه به، ثم سقته بعض الماء.

★★★

تحرك «كينو» أثناء نومه، وهمهم بصوت متحشرج، ولـوح يديه في الهواء كما لو كان يعارك أحداً، ثم توجع في أنين خافت، ونهض فجأة فاتحاً عينيه على اتساعهما، وراح يصغي بانتباه لكنه لم يسمع سوى أزيز الحرارة الشديدة للجو، وهسيس مسافات الخلاء البعيدة. وتساءلت «جوانا» بانزعاج:

- ماذا هناك؟

فقال:

- اسكتي.

فقالت:

- كنت تحلم.

فقال:

- ربما.

لكـن قلقـاً كـان يسيطر عليـه، وعنـدما ناولتـه «جوانـا» كعكة من المخزون لديها، توقف أثناء مضغها لينصت، ثم تناول سكينه الضخم وتحسس نصلها، وعندما تأوه «كويوتيتو»، طلب من «جوانا» بعصبية أن تسكته، وراح ينصت مرة أخرى، وقد ظهر في عينه بريق وحشي، ثم نهض منحنياً وزحف بحذر بين الشجيرات

التي تحف بالطريق الذي كانوا يسيرون فيه، وكان حريصاً على ألا تلمس قدماه الطريق ذاته. ثم اتخذ من شجرة شوكية صغيرة ساتراً له وراح ينظر. فرأى على مسافة غير بعيدة رجلين يسيران على أقدامهما، ويتحركان ببطء، وكانا في كل حين يتوقف أحدهما وينحني على الأرض، ويحدق في التراب أمامه، ثم ينضم إليه زميله ويحدق معه. وعلى الفور عرفهم «كينو»: إنهم مقتفو الأثر.. فسرت في كيانه رعشة خوف ورعب. فهو يعرف أن هؤلاء لديهم المقدرة على تتبع أي شيء يتحرك، حتى لو كان كبشاً ضالاً بين الجبال. كما يمكنهم قراءة المعنى في قشة مكسورة، أو كوم تراب منكوش. ويتميزون بحاسة شم قوية ويقظة لا تتوافر إلا لكلاب الصيد المدربة. وخلف الرجلين الذين كانا يسيران على أقدامهما، رأى «كينو» رجلاً ثالثاً يركب حصاناً، ويغطي أنفه بوشاح، وعلى جانب سرج الحصان تتدلى بندقية تلمع ماسورتها الطويلة في ضوء الشمس.

☆☆☆

استلقى «كينو» على بطنه، وحبس أنفاسه، في حين اتجهت عيناه لا إرادياً إلى المكان الذي كان قد مسح فيه آثار أقدامه، وكان قلقاً، فالآثار المسوحة أيضاً يمكن أن تصبح رسالة يفهمها مقتفو الأثر، فيستدلون منها على مكانه.

كان مقتفو الأثر يهرولون ويروحون ويجيئون على الأرض مثل الحيوانات. وعندما عثروا على علامة، ظلوا جاثمين فوقها طويلاً، وهم يعوون كأنهم كلاب أثارتها رائحة صيد. فسحب «كينو» سكينه

ببطء وجعلها جاهزة في يده. وبينما كانوا يقتربون منه، كان ينبش الأرض تحته بأصابع قدميه البارزة من صندله، حتى يثبت نفسه، ويتمكن من القفز المباغت عليهم - إذا اضطر لذلك - دون أن تنزلق قدماه.

☆☆☆

في تلك اللحظات، سمعت «جوانا» صوت وقع حوافر الحصان على الأرض، في حين بدأ «كويوتيتو» يتحرك ويصدر صوتاً بفمه، فأمسكته ووضعته تحت شالها، وألقمته ثديها حتى هدأ ونام.

☆☆☆

توقف مقتفو الأثر طويلاً عند المكان الذي به آثار الأقدام الممسوحة، وراحوا يحدقون فيه ويفحصونه. في حين مد الحصان رقبته إلى أعلى، وخشخشت حلقة اللجام تحت لسانه، ثم صهل. فاستدار الرجلان الجاثمان فوق الأرض، وراحا يراقبان الحصان ويلاحظان حركة أذنيه، ثم استمرا في سيرهما البطيء ودراسة أرض المكان حولهما، ومن حين لآخر، كانا يتوقفان عن الهرولة والذهاب والمجيء لينظرا بإمعان وتركيز في الأرض.

☆☆☆

أثناء ذلك كان «كينو» يحبس أنفاسه، وكانت أعصابه وعضلاته مشدودة، وكان خط رفيع من العرق ينساب فوق وجهه. كان مدركاً أنهم لا بد سيرجعون، بعدما يبتعدون قليلاً، إلى مكان الآثار الممسوحة التي لفتت أنظارهم. فانسل للخلف، دون أن يهتم بمسح الآثار الجديدة التي طبعتها أقدامه على الأرض؛ إذ كان هناك الكثير

من الأغصان المكسورة، وأوراق الشجر المتساقط والحجارة المزاحة من أماكنها، والكثير من الأماكن المطروحة.. وكلها يمكن أن ترشدهم.

كان يسيطر عليه هلع شديد يستحثه على الفرار، فعاد بسرعة إلى حيث تختبئ «جوانا»، وعندما نظرت إليه مستفسرة فقال:

- مقتفو الأثر.. وصلوا.

كانت تجتاحه موجة من الشعور بالعجز واليأس، في حين اسود وجهه وأطل من عينيه حزن عميق فقال:

- ربما ينبغي علي أن أستسلم لهم.

فنهضت «جوانا»، وأمسكت بذراعه، ثم صرخت بصوت مبحوح:

- وهل تعتقد أنهم سيتركونك تمضي لحال سبيلك بعد أن يأخذوا اللؤلؤة منك، ليعودوا ويقولوا إنهم سلبوها على غفلة منك؟!

فتسللت يده تفتش عن اللؤلؤة بداخل قميصه، ثم قال بضعف:

- سيجدونها!

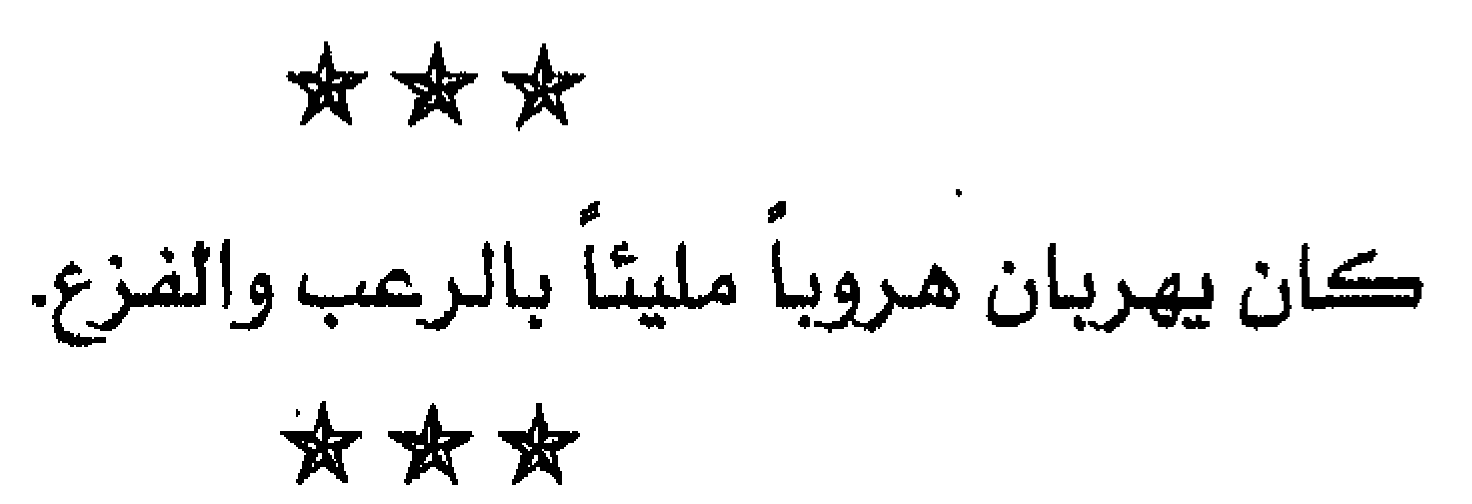
ولما لم يبد أي استجابة لما قالته «جوانا»، عاودت القول:

- هل تظن أنهم - حتى لو سلمت نفسك لهم - سيتركونني أو يتركون «كويوتيتو» أحياءً.

فنشطت هذه الكلمات عقله كأنها منخاساً نخسه، فجعلته ينتبه ويتيقظ، بعدما كان يبدو بليداً ومستسلماً. فزم شفتيه، ثم نظر بتوحش وقال:

- هيـا إذاً.. لا يجـب أن نـضيع الوقـت.. سـنذهب إلى الجبـال.. وهناك ربما نتمكن من الهرب والنجاة.

وفي جنـون، راح يجمـع الأشـياء الـصغيرة الـتي كانـت معهـم، وكانـت تمثـل كـل مـا يمتلكونـه الآن - ووضـعها بـداخل صـرة، أمسكها بيده اليسرى، بينما كانت سكينه في يده اليمنى، يقطع بها الأغصان المتشابكة التي تعترض طريقهما. وهرول، تبعته «جوانا»، متجهاً إلى المرتفعات الجبلية في الغرب.



★★★

كان يهربان هروباً مليئاً بالرعب والفزع.

★★★

كانت حرارة الشمس الشديدة تتدفق فوق الأرض الجافة، ومن شـدتها كانـت النباتـات تطقطـق وكأنهـا تـتقض احتجاجـاً. وعلـى البعد، وسط المرتفعات الجبلية، كانت تبرز القمم الجراتينية الملساء، متراصـة في تنـاغم وانـسجام في مواجهـة الـسماء. وسـط تلـك المرتفعـات أخـذ «كينـو» و «جوانـا» يجريان مستهدفين الوصـول إلى مكـان عـال؛ مثلما تفعل الحيوانات المطاردة.

★★★

كانـت أرض هـذه المرتفعـات الجبليـة تخلـو مـن المـاء، لكنهـا لم تخلو من الصبار الذي يختزن الماء، ومن الأشجار ذات الجذور السميكة التي تصل إلى أعماق بعيدة في الأرض لتحصل على بعض الماء.

لم يكـن «كينو» و «جوانـا» وهمـا يهـرولان يسيران فـوق أرض ترابية سهلة أو منبسطة. وإنما كانا يقفـزان مـن مكـان لآخـر وسـط

صخور وأحجار في شكل مكعبات وشرائح مختلفة الأحجام. وهنا وهناك وسط الصخور كانت توجد بعض الروابي الصغيرة من الأعشاب الجافة الحزينة، التي عادة ما تنمو في أعقاب حالة المطر النادرة، وتزهر بسرعة ثم تجف وتموت بعد أن تسقط جذورها، التي تواصل الحياة والنمو من جديد. وبين تلك الصخور، كانت هناك ضفادع ذات قرون، أخذت تراقب «كينو» و «جوانا» وهما يهرولان إلى جانبها، وتدير رؤوسها الصغيرة غير عابئة بهما. ومن حين لآخر كان أرنب جبلي كبير يقفز فزعاً، ويختبئ خلف أقرب صخرة.

★★★

كانت المنطقة الصحراوية التي تشهد هروب «كينو» و «جوانا» تلتهب بالحرارة الشديدة، في حين كانت الجبال التي تواجههما تبدو باردة ومرحبة بهما.

★★★

كان «كينو» على يقين بأن مقتفو الأثر، بعدما يقطعون مسافة على الطريق، سيدركون أنهم قد أخطؤوا، فيعودون من حيث بدؤوا ويفتشون ويقدرون من جديد، وسيعثرون حتماً على المكان الذي كانا يستريحان ويختبئان فيه.

كان يتصور ما يفعلونه: الاثنان اللذان يسيران على أقدامهما سينحنيان فوق أثر من آثار الأقدام، وسيعويان مثل كلبين مسعورين. والرجل الثالث الذي يتبعهما، راكباً حصانه، لا يبدو عليه الاهتمام كثيراً فمهمته ستكون الأخيرة، بعد العثور على

«كينو» و «جوانا» والحصول على اللؤلؤة، إذ لن يعود بهما أو بزميليه.. سيتخلص من الجميع ويقتلهم، ليستولي لنفسه على اللؤلؤة! وآه.. لقد عادت موسيقا الشر، لتصخب من جديد في رأس «كينو»، وقد امتزجت بأزيز الحرارة وفحيح الثعابين التي تملأ المكان، بينما كانت ضربات قلبه تدق بسرعة وعنف، مشكّلةً الإيقاع المصاحب للنغمات.

★★★

بعد أن ابتعد «كينو» قليلاً عن الطريق الذي كان مقتفو الأثر يروحون ويجيئون فيه، صعد لأعلى وسط المرتفعات الصخرية، ثم تسلق صخرة ضخمة لينظر إلى المنطقة الساطعة الضياء تحته، فلم يشاهد أحداً، فعاد، ثم جلس ليستريح قليلاً. بينما قرفصت «جوانا» في مكان ظليل. ثم رفعت زجاجة الماء وقربتها من فم «كويوتيتو» الذي أخذ يمص الماء منها بلسانه الصغير الجاف في شراهة. ثم مدت الزجاجة إلى «كينو»، الذي هز رأسه، وبدلاً من أن يتناولها ويشرب، راح يبلل شفتيه المشققتين بلسانه، ثم قال:

- سأستمر في الصعود إلى أعلى، بينما تختبئين أنت.. سأقودهم ورائي في الجبال.. وعندما يتجاوزون مكانك، اذهبي إلى الشمال.. إلى «لوريتو» أو إلى «سانتا روزاليا»، وإذا تمكنت من الإفلات منهم، ألحق بكم.. هذه هي الوسيلة الوحيدة المتاحة لنا والآمنة. فنظرت جوانا في عينيه نظرة عميقة وقالت:

- لا.. لن تذهب بمفردك.. سنذهب معك.

فقال في حدة:

- وحدي سأذهب أسرع، بينما لو جئت معي فسيتعرض الصغير للخطر.

فأصرت على رفضها، فقال:

- يجب أن تنفذي ما أقول.. فهذا هو التصرف الحكيم.. وهذه رغبتي. ولكن «جوانا» كانت متمسكة بالرفض، فراح «كينو» يبحث في عينيها عن أي ضعف أو خوف أو تردد، ولما لم يجد سوى البريق والنظرات الحادة القوية، هز كتفيه في يأس. لكنه كان قد استمد من تلك النظرات القوة والشجاعة، وعندما تحركا، لم يعد هروبهما مليئاً بالهلع والرعب كما كان.

☆☆☆

وواصلا مسيرهما في المنطقة الجبلية، ولمزيد من الحذر، لم يتّبع «كينو» في سيره خطاً واحداً مستقيماً، وإنما كان يسير في خطوط متعرجة، وأحيانا كان يرجع إلى الخلف ويترك علامة أو أثر، ثم يتقدم إلى الأمام مرة أخرى.

☆☆☆

بينما كانت الشمس تنحدر نحو الأسنان الصخرية الملساء للمرتفعات الجبلية اتجه «كينو» إلى شق صخري مظلم وعميق، توقع أن يجد فيه ماء، بعد أن لمح من على بعد لوناً أخضر بالقرب منه. وإذا كان في تلك المنطقة الصخرية الجرداء، أي طريق للمرور، فلن يكون إلا عبر ذلك الشق العميق. ومن هنا كانت خطورته، فمطاردي «كينو» سيفكرون فيه أيضاً وسيصلون حتماً إليه. إلا أن زجاجة الماء

الفارغة، لم تجعل لهذا الاعتبار أو تلك الخطورة أي أهمية في تفكير «كينو»، الذي اتجه دون تردد نحوه.

★★★

وعالياً وسط المرتفعات الصخرية الرمادية، وتحت قمة جبلية متجهمة، كان هناك نبع يفور مكوناً بركة صغيرة حوله، سرعان ما تفيض وينساب منها الماء على هيئة شلال صغير ليكون بركة أخرى أصغر فوق مصطبة من المصاطب الصخرية، سرعان ما تفيض هي الأخرى لينساب منها الماء في خيط رفيع، ويكون بركة ثالثة.. وهكذا تتكون بركة من بركة إلى أن ينفذ الماء ويتبخر في الهواء بفعل الحرارة الشديدة والجفاف.

حول تلك البركة كانت تتجمع كمية من التربة الصخرية الناعمة، تسمح بنمو بعض النباتات والأعشاب. كما كانت تعيش حولهما وتتجول كثير من الضفادع والحشرات. وكان يسبح في مائها بعض الأسماك الصغيرة والديدان. ومن مسافة أميال حول هذا المكان، كانت تأتي في الليل حيوانات وطيور مختلفة لترتوي من ماء البركة.

.. كل شيء يحب الماء ويحتاجه كان يأتي إلى هذا المكان؛ حتى القطط المفترسة كانت تأتي بفريستها إليه، وبعد أن تلتهمها وتنشر ريشها في كل المكان، تنحني وتلعق بألسنتها الصغيرة الملوثة ماء البركة، فتصبغه باللون الأحمر... وهكذا كانت تلك البركة الصغيرة مسرحاً للحياة، كما كانت مسرحاً للقتل وسفك الدماء، وذلك بسبب الماء.



كانت الشمس قد عبرت الجبال عندما وصل «كينو» و «جوانا» إلى بركة الماء، وكان قد هدّهما التعب، فهبطت «جوانا» على ركبتيها وراحت تغسل وجه «كويوتيتو» أولاً، ثم ملأت زجاجة الماء لتسقيه، ثم راحت ترضعه حتى توقف عن البكاء، وأخذ يلوح بيديه ورجليه. أما «كينو»، فقد غطس وجهه في البركة وراح يشرب بنهم شديد، ثم تمدد بجوار الماء بعض الوقت، مرخياً عضلاته، ثم نهض، ليفتش بعينيه المكان المترامي الأبعاد حوله، فوقعت عيناه على نقطة بعيدة، جعلته يتخشب في مكانه؛ فبعيداً، أسفل الجبل، رأى الرجلين اللذين يقتفيان أثره: أكبر قليلاً من نملتين مهرولتين. وخلفهما الرجل الذي يركب الحصان: في حجم نملة كبيرة.

عندما التفتت «جوانا» ورأته واقفاً متخشباً تساءلت بهدوء: «كم يبعدون؟»، فقال «كينو»: «سيكونون هنا أول الليل». ونظر إلى أعلى الشق الصخري الطويل والمنحدر وقال: «يجب أن نذهب ناحية الغرب». وطاف بعينيه حول الكتف الصخري الذي يحيط بالشق، فرأى بأعلاه، وعلى مسافة غير بعيدة، عدد من الكهوف الصغيرة التي حفرتها الرياح في صخر الجبل، فخلع صندله، وتسلق صاعداً إليها ماسكاً الصخر الأملس بأصابع كلتا يديه ورجليه. ونظر بداخلها فوجدها غير عميقة، وتنحدر إلى الداخل قليلاً.

فزحف ودخل أكبر كهف منها، واستلقى بجسمه على أرضه ليتأكد من أن أحداً لن يراه من الخارج. ثم نهض وعاد سريعاً إلى

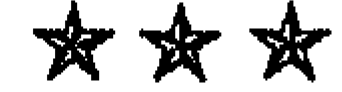
«جوانا» وقال مشيراً لها بيده: «سنصعد إلى ذلك الكهف، وربما إذا اختبأنا فيه، لا يعثرون علينا».

ودون أن تسأل، ملأت زجاجة الماء من البركة، ثم ساعدها «كينو» حتى صعدت، واستقرت في داخل الكهف.

وبعد أن نظر في كل المكان حوله، وتأكد من عدم وجود آثار أو علامات واضحة تدل على مرورهما بالمكان، زحف ودخل الكهف. ثم قال: «إذا صعدوا، سنتسلل ونهبط إلى أسفل مرة أخرى، أخشى فقط أن يصرخ «كويوتيتو»، فيعرفوا مكاننا، كل مهمتك أن تمنعي صراخه». فقالت: «لن يصرخ، اطمئن!». وقربت وجهها من وجه طفلها وحدقت في عينه، ثم قالت: «هو يعرف».

★★★

تأخر وصول مقتفي الأثر، كما لو كانوا قد صادفوا مشكلات أو تعقيدات مع الآثار والعلامات المضللة التي تركها لهم «كينو». وأخيراً.. وصلوا، حين بدأ ينتشر ظلام خفيف. كان ثلاثتهم يسيرون على أقدامهم، بعد أن تركوا الحصان الذي عجز عن التسلق، بأسفل الجبل. ومن أعلى كانوا يبدون مثل أشباح رفيعة، وهم يهرولون مسعورين حول بركة الماء المنتشر حولها آثار أقدام «كينو» و «جوانا». وأخيراً جلس الرجل الذي يحمل البندقية بجوار البركة في استرخاء، وإلى جانبه قرفص زميلاه. وفي الظلمة الخفيفة كانت تبدو سجائرهم المشتعلة: تومض ثم تخبو. وعلى ضوء تلك السجائر كان «كينو» يراهم من أعلى، كما كان يسمع همهمة أصواتهم وهم يتحدثون.



بعد أن خيم الظلام، اقتربت الحيوانات التي اعتادت المجيء لتشرب من ماء البركة، وما إن شمت رائحة الرجال الثلاثة حتى تراجعت وولت هاربة واختفت في الظلام.

☆☆☆

توهج في الظلام عود كبريت مشتعل، فكشف ضوءه للحظة الأوضاع التي كان عليها مقتفو الآثار، مما أتاح «لكينو» أن يرى اثنين منهم نائمين ومتكورين مثل كلبين، بينما كان الثالث يجلس مستيقظاً وبين ركبتيه البندقية.

☆☆☆

تحرك «كينو» ببطء للوراء، ودخل الكهف، واقترب من «جوانا» ثم همس:

- «هناك طريقة»، فقالت هامسة: «ولكنهم سيقتلونك»، فقال:

- إذا استطعت أن أباغت الرجل الذي معه البندقية، وأصل إليه قبل أن يشعر بي زميلاه النائمان، فلن يصيبني أذى.

- ولكن ملابسك البيضاء ستكشفك.

- لا... ولا بد أن أنتهي من ذلك قبل أن يبزغ القمر في السماء وينير المكان. وبحث في ذهنه عن كلام رقيق ينطق به، ولكنه لم يجد، فاضطر أن يقول:

- إذا قتلوني لا تتحركي وانتظري في مكانك، إلى أن يرحلوا ويذهبوا بعيداً.

ثم اذهبي إلى «لوريتو».

وارتعشت يدها قليلاً، وهي تمسك بيده، حين قال: «ليس أمامنا خيار.. هذه هي الطريقة الوحيدة، فإذا طلع النهار سيجدوننا بالتأكيد». فاهتز صوتها وهي تقول: «اذهب.. في حماية الله».. فنظر إليها بعمق متأملاً عينيها الواسعتين، ثم مد يده وتحسس بها في الظلام حتى وجد الطفل، فترك يده قليلاً فوق رأسه، ثم رفع يده ولمس خد «جوانا»، التي كانت في تلك اللحظة تحاول جاهدة السيطرة على مشاعرها وعدم البكاء.

★★★

وفي مدخل الكهف المفتوح على السماء، راح «كينو» ينزع ملابسه البيضاء التي يرتديها، والتي على الرغم من اتساخها إلا أنها يمكن أن تظهره وتكشفه في الظلام. في حين كان جسمه العاري بلون بشرته البني، يمثل أفضل إخفاء وستر له، ثم ربط سكينه الكبير في خيط التعويذة الملفوف حول رقبته بحيث تتدلى السكين أمامه ولا تنشغل يده بها، ومكث لحظة في مدخل الكهف صامتاً لا يتحرك، ثم زحف هابطاً.

★★★

زحزحت «جوانا» نفسها، وجلست في مدخل الكهف، وراحت تحدق في الظلام. كانت جامدة لا تحرك رأسها كأنها بومة، بينما كان «كويوتيتو» نائماً فوق ظهرها، ورأسه يستند إلى كتفها. ثم أخذت تهمس بابتهالاتها وترانيمها السحرية التي ورثتها عن جدّاتها، عسى أن تحميهم من الأشياء غير الإنسانية والشريرة التي تهددهم.

★★★

فجأة، بدا الليل أقل ظلمة، حين ظهر في الأفق ناحية الشرق ضياء خفيف سبق ظهور القمر في السماء. وعندما نظرت «جوانا» لأسفل، لمحت وميض السيجارة المشتعلة التي كان يدخنها الرجل الذي يقوم بالمراقبة أثناء نوم زميليه.

***

زحف «كينو» ببطء كالسحلية، مقترباً من حافة الكتف الصخري الناعم أسفل الكهف. بعد أن لف خيط التعويذة الملتف حول رقبته والمربوط به سكينه الكبير، ليجعلها خلف ظهره، فلا تصطدم بالصخر أمامه وهو يزحف، فتحدث صوتاً يلفت الانتباه. كان يزحف ماسكاً الصخر بأصابع يده، في حين كانت أصابع قدميه العاريتين تلامس الصخر ثم تتشبث به، وكان صدره يلتصق تماماً بالصخر، حتى لا ينزلق، فأي انزلاق بسيط، أو حجر صغير يتدحرج، أو مجرد تنهيدة، قد يثير انتباه الرجل المستيقظ الجالس تحته مباشرة، كما إن أي صوت يصدر ولا يكون منسجماً مع أصوات الليل المعتادة قد يوقظ زميليه النائمين، على الرغم من أن نقيق الضفادع المتواصل وأزيز الحشرات المعدني الحاد كان يكسر السكون.

كانت رأس «كينو» - حينئذٍ، تمتلئ بموسيقاه الخاصة، بينما كانت موسيقا العدو خافتة وضعيفة، وكانت أغنية العائلة قد أصبحت وحشية وفيها تحدي وكأنها زمجرة «بوما»[1] مفترسة. وفي الوقت نفسه كانت تفيض بالحيوية والنشاط المحفز للانقضاض على

1- البوما: حيوان مفترس من فصيلة النمر، يعيش في جبال أمريكا.

العدو، وكانت حشرات الليل بأزيزها الخشن تبدو كأنها تعرف لحن الأغنية، في حين كانت الضفادع بنقيقها الحاد المتواصل تبدو مرددةً أحد مقاطع الأغنية.

★★★

واصل «كينو» زحفه كالظل أسفل الوجه الأملس للكتف الصخري: قدم واحدة عارية تتحرك ببطء شديد وتلمس الأصابع الصخر ثم تتشبث به بقوة، ثم تعقبها القدم الأخرى. بعدها تتحرك إحدى اليدين لأسفل قليلاً، ثم تليها اليد الأخرى.. وهكذا.. فيتحرك الجسم كله دون أن يبدو عليه مظهر الحركة.

وكان يفتح فمه ويتنفس منه، حتى لا يحدث مرور الهواء في فتحتي أنفه أي صوت، فقد كان حتى تلك اللحظة غير مرئي، ولكن إذا شعر الرجل الجالس تحته والمكلف بالسهر والمراقبة، بأي حركة أو اخترق أذنيه أي صوت غريب عن أصوات الليل، ونظر إلى المكان المظلم فوقه مباشرة، فحتماً سيراه. ولذلك استغرق «كينو» وقتاً طويلاً حتى وصل إلى الأرض، وتريص خلف نخلة صغيرة.

★★★

في تلك اللحظة، كانت تفصله عن عدوه عشرون قدماً فقط، فراح يمعن النظر في هذه المسافة القصيرة حتى لا يعرقله حجر أو أي شيء أثناء انقضاضه، ثم راح يدلك ساقيه ويلين عضلاته المشدودة، ليضمن عدم انقباضها وهو ينقض.

ثم نظر بقلق إلى السماء: فالقمر كان على وشك الظهور، وعليه أن يهجم وينقض قبل أن يظهر وينير المكان فيكشفه. كان

يرى بوضوح، بفضل السيجارة المشتعلة، الخط الخارجي المحدد لهيئة الرجل المستيقظ، بينما زميليه النائمين كانا خارج مجال رؤيته.. كان عليه أن يهجم فوراً ودون أي تردد، ولذلك جذب خيط التعويذة المطروح فوق ظهره، وفك منه السكين وأمسكها في يده.. إلا أنه كان قد تأخر قليلاً، إذ بينما هو ينهض آخذاً وضع الاستعداد للانقضاض المباغت، بزغت ناحية الأفق الشرقي الحافة الفضية للقمر، فغطس بسرعة خلف النخلة الصغيرة.

***

ورغم أن القمر لم يكن في أكمل حالاته، إلا أنه وفر ضياءً كافياً، مكنه من رؤية الوضع الذي كان عليه الرجل الذي سيهجم عليه، والذي كان في تلك اللحظة، سارحاً بنظره نحو القمر وفي يده السيجارة المشتعلة. ولم يعد أمام «كينو» أي مجال للانتظار، فيجب أن ينقض الآن وفوراً، في اللحظة التي يدير فيها الرجل رأسه ويحول نظره عن القمر. ولكن فجأة، جاءت من أعلى صرخة صغيرة، فأدار الرجل رأسه ليصغي، ثم وقف على قدميه، في حين استيقظ أحد الرجلين النائمين وتساءل: «ما هذا؟» فرد عليه: «لا أعرف.. لكن الصوت يشبه صرخة الطفل». فقال: «لا يمكنك أن تجزم.. ربما كانت ذئبة تلد.. فقد سبق أن سمعت ذئباً يصرخ وكان صراخه مثل صراخ الطفل».

وتدحرجت قطرات العرق من فوق جبهة «كينو» وسقطت في عينيه ولسعتها. في حين جاءت الصرخة مرة أخرى، فنظر الرجل باتجاه الكهف المظلم أعلى جانب الكتف الصخري وقال: «ربما

كان ذئباً بالفعل». ثم سمع «كينو» صوت الطقطقة الخشنة لترياس البندقية حين سحبه الرجل للخلف ودفعه للأمام، وهو يرفع البندقية لأعلى، ويصوب قائلاً: «إذا كان ذئباً فإن هذه الطلقة ستسكته على أي حال».

★★★

في اللحظة التي دوت فيها الرصاصة، كان «كينو» في منتصف القفزة والانقضاض، وحين انطلقت الرصاصة، انطلقت السكين تطعن، فانغرزت في الرقبة، وتوغلت في الصدر. وخطف «كينو»، الذي تحول الآن إلى آلة رهيبة مرعبة، البندقية بإحدى يديه، بينما كانت يده الأخرى تسحب السكين من صدر الرجل. ثم استدار ووجه ضربة ساحقة إلى رأس أحد الرجلين الراقدين على الأرض، كما لو كان يضرب بطيخة. في حين فر الرجل الثالث، الذي استيقظ مذعوراً، وهرول كأنه سرطان بحري وألقى بنفسه في بركة الماء الصغيرة، ثم زحف وخرج من الماء، ليحاول في جنون تسلق الشق الصخري المعتم، وهو يئن ويصرخ. فسحب «كينو» - الذي كان قد أصبح بارداً وصلباً كالفولاذ - ترياس البندقية بتأن ثم رده، وعاجله برصاصة أسقطته من البركة، وتقدم منه وصوب مرة أخرى، مطلقاً الرصاص بين عينيه المفزوعتين.

★★★

وقف «كينو»، وقد استولى عليه شك وريبة.. فشيء ما خطأ.. قد حدث.. إشارة ما كانت تحاول النفاذ إلى عقله.. في حين التزمت الضفادع والحشرات في تلك اللحظة الصمت التام والسكون. ثم صفا

ذهنه وخلا من تركيزه الدموي الأحمر، وعرف الصوت: فالصرخة الممتزجة بالعويل الهستيري والأنين الفاجع، والتي جاءت من ناحية الكهف، بعد انطلاق رصاصة الرجل.. كانت صرخة موت.

***

الكل في مدينة «لاباز» ما زال يتذكر عودة العائلة.. وربما ما زال حياً بعض العجائز اللذين شهدوا بأعينهم تلك العودة.. لكن من المؤكد أن من سمعوا بها مجرد سماع، من أجدادهم أو آبائهم ما زالوا يتذكرونها ويستطيعون وصفها بدقة، على الرغم من أنهم لم يشهدوها بأنفسهم. فما تعرض له «كينو» وعائلته لم يكن مجرد حادث مفجع يخصه وحده، وإنما كان يخصهم جميعاً.

***

كان ذلك في الأصيل، حينما لوّنت الشمس الأفق بلون الذهب، وركضت في جنون هستيري أول جماعة من الصبية داخل شوارع المدينة، ليذيعوا نبأ عودة «كينو» و «جوانا»، فسارع كل من في المدينة إلى الخروج ليشاهدوهما.

***

عندما وصلا إلى المدينة عبر الطريق الترابي الرئيس؛ لم يكونا يسيران خلف بعضهما كما هي العادة: «كينو» في المقدمة، وخلفه «جوانا»، وإنما كانا يسيران جنباً إلى جنب. أمامهما ويسبقهما ظلان طويلان.

كانا يبدوان، لمن يراهما، وكأنهما يحملان فوق كتفيهما صرحين ضخمين من ظلام أسود.

كان «كينو» يحمل على كتفه بندقية. وكانت «جوانا» تحمل على كتفها شالها وقد تكوم وتلطخ بدماء جافة، وكان بداخله صرة صغيرة رخوة وثقيلة، تهتز وتترجرج أثناء سيرها. كان وجهها متجمداً ومتجلداً من الإرهاق الذي كانت تقاومه بالإصرار الشديد الذي تبديه. وكانت عيناها الواسعتان تنظران بثبات نحو الداخل، كانت تبدو بعيدة ونائية مثل السماء.

أما «كينو» فكانت شفتاه جافتين، وكان فكاه مشدودين. ويقول الناس: إنه كان يشع خوفاً ورعباً وظلاماً، بل كان في مثل خطورة عاصفة رعدية شديدة. ويقولون إن مظهرهما كان يوحي بأنهما خارجين من تجربة بشعة لا يتخيلها إنسان، انتقلا خلالها إلى جانب آخر من الكون المجهول، شاهدا فيه ألم ومعاناة رهيبة. وكانا يبدوان وهما يسيران وكأن قوة سحرية تغلفهما.

***

كان «كينو» و «جوانا» يخترقان شوارع المدينة، وكأنها غير موجودة؛ فلم تلتفت أنظارهما إلى جهة اليمين أو جهة اليسار، ولا إلى أعلى أو إلا أسفل، وإنما كانا ينظران بثبات دائماً إلى الأمام. وكانت أرجلهما ترتعشان قليلاً، وهما يسيران، وكأنهما عرائس خشبية.

***

ومن وراء قضبان نوافذ متاجرهم، كان تجار اللؤلؤ ينظرون إلى «كينو» و «جوانا» وهما يمران من أمامهما، كما كان خدم البيوت ينظرون إليهما وقد وضع كل واحد منهم عيناً واحدة من عينيه في إحدى فتحات الأسوار الخشبية المحيطة بمنازل سادتهم. وحرصت

الأمهات على إخفاء وجوه صغارهن، وهن واقفات يتطلعن، حتى لا يروا المشهد المفزع.

☆ ☆ ☆

ووسط منطقة الأكواخ، كان جيران «كينو» و «جوانا» يتراجعون مفسحين لهما الطريق كلما مرّا بهم. كما رفع «جوان توماس» شقيق «كينو» يده ليحييهما، ولكن لشدة ذهوله، لم تخرج من بين شفتيه كلمة تحية واحدة، وظلت يده معلقة في الهواء حتى بعد أن تجاوزاه.

مر «كينو» و «جوانا» بالمربع المحترق الذي كان مكانه ذات يوم الكوخ الذي يعيشان فيه، ولم ينظرا إليه. ثم عبرا خط الأشجار الذي يفصل منطقة الأكواخ عن شاطئ البحر، واتجها نحو الماء، دون أن يلتفتا إلى قاربهما المحطم على الشاطئ.

وتوقفا عند حافة الماء، ونظرا طويلاً إلى الخليج المترامي الأبعاد أمامهما، ثم ألقى «كينو» البندقية على الأرض، ودس يده في ملابسه، وأخرج اللؤلؤة، ونظر إلى سطحها التي كان يبدو في تلك اللحظة رمادياً وقاتماً، فرأى وجوهاً شريرة تطل منه، وعينان مرعوبتان لرجل أسود مطروح في بركة ماء، تحدقان في عينيه، كما رأى بداخل اللؤلؤة «كويوتيتو» راقداً في الكهف الصغير، وقد أطاحت رصاصة بقمة رأسه الصغيرة.

كانت اللؤلؤة في تلك اللحظة قبيحة مثل الورم الخبيث، وكانت موسيقاها مشوهة ومجنونة.



ارتعشت يد «كينو» قليلاً وهو يمدها باللؤلؤة إلى «جوانا» الواقفة إلى جانبه، حاملة الصرة الميتة فوق كتفها.

نظرت «جوانا» إلى اللؤلؤة في يد «كينو» لحظة، ثم نظرت في عينه وقالت بفتور:

- لا.. أنت.

فمد «كينو» ذراعه للخلف، ثم رمى باللؤلؤة. وشاهداها وهي تنطلق في الهواء غامزة ومتلألئة في ضوء شمس الغروب الواهنة. ثم شاهدا الطرطشة التي أحدثها ارتطامها بسطح الماء. ووقفا مدة طويلة جنباً إلى جنب ينظران إلى المكان الذي غطست فيه.

★★★

وهناك في المياه الخضراء البديعة لقاع البحر، استقرت اللؤلؤة، بينما كانت الطحالب تناديها وترحب بها ملوحة بأغصانها.

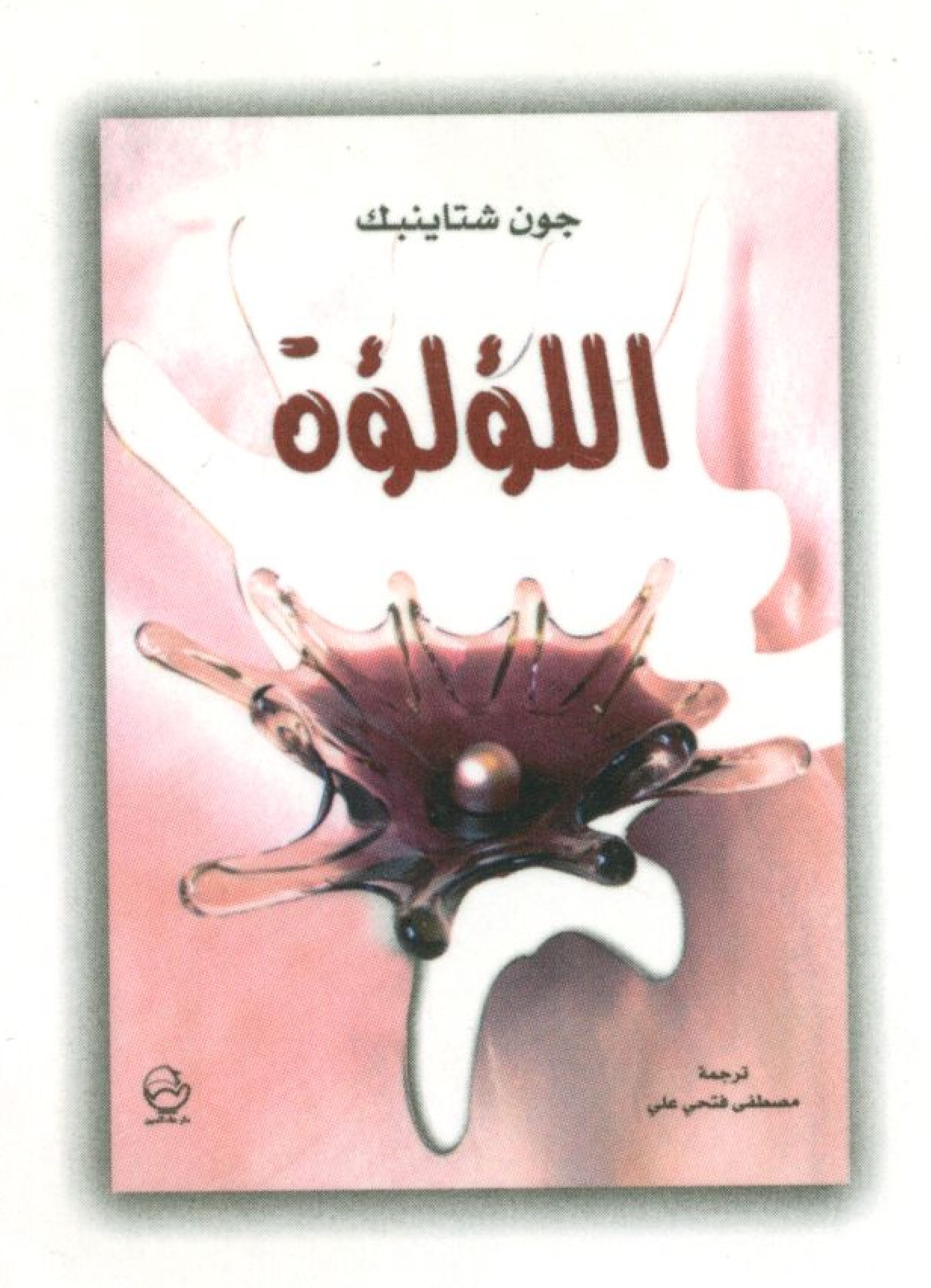
وكان سطح اللؤلؤة يعكس أضواء خضراء فاتنة. وما إن استقرت على القاع الرملي وسط أعشاب ونباتات البحر، حتى هرول سرطان بحري فوق القاع، مثيراً سحابة صغيرة من الرمال، ما إن انقشعت وعادت المياه إلى صفائها حتى كانت اللؤلؤة قد اختفت، وتحولت موسيقاها إلى همس، ثم تلاشت.



من منشورات دار علاء الدين

- ذكريات غيشا
  ....أرثر غولدن
- زنوبيا ملكة تدمر - رقص الآلهة
  ....أ. بد دانييال
- أسرار المدافن المصرية
  ....أجاثا كريستي
- الحب المتبادل بين الزوجين
  ....البرتو مورافيا
- ارخبيل غولاغ
  ....الكسندر سولجنيتسين
- مساء ذبول الوردة
  ....[illegible]
- خبز فوق الماء
  ....[illegible]
- لأجلك يا خروف
  ....إياد ناصر
- قرب النهر أبكي
  ....باولو كويلهو
- محارب النور
  ....باولو كويلهو
- بؤس الشيطان
  ....بريم ستوكر
- جاز
  ....توني موريسون
- أخوية اليقظانين
  ....جاك اتلي
- موت يومي حقيقة ما قصص
  ....جهاد عقيل
- مشاهد من حياة كهنوتية
  ....جورج اليوت
- هيجان محاكمة وقتل لوركا
  ....جوزيه لويس دي فيلالونغا
- إيفا
  ....جيمس هادلي شيز
- النطع
  ....جينكيز إيتماتوف
- مرآة الحبر مختارات
  ....خورخي لويس بورخيس
- [illegible] لعبة القفز بين المربعات
  ....خوليو كورتاسار
- [illegible]
  ....دافيد سلتزر
- مذكرات امرأة
  ....روش بدرخان
- أنماط غريبة من الحب
  ....سومرست موم
- الرحيل
  ....طاهر بن جلّون
- العرض الأخير
  ....عزيز نيسين
- حكاية البغل العاشق
  ....عزيز نيسين

The Pearl



The Pearl

رائعة صغيرة من روائع كلاسيكيات الأدب العالمي للكاتب الأمريكي جون شتاينبك، تحكي عن صياد لؤلؤ مكسيكي عثر على أكبر لؤلؤة في العالم، ولكنه بدلاً من أن يصبح ثرياً وأكثر سعادة؛ فَقَد السعادة والحلم، وتقريباً كل شيء...

حكاية بسيطة مفعمة بالرمز والشجن مثل الحكايات الشعبية والموروثات التراثية، صاغها شتاينبك بعبقرية أدبية فذة في قالب غنائي بديع.

وإذا كان في روايتنا هذه شيء من الرمز، فربما يستخلص منها كل إنسان على حدة المعنى الخاص به، أو يطالع فيها صفحة من صفحات حياته.

ISBN 978-9933-18-063-8





يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء ال... والطباعة والتوزيع - سورية - دمشق
ص.ب. ٣٠٥٩٨ - هاتف ٥٦١٧٠٧١ - فاكس ٥٦١٣٢٤١ - بريد الكتروني ala-addin@mail.sy